القسم الثالث

الفصل الثانى عشر

سيف الاسلام

انحصر حتى الآن سلطان جنكيز خان فى آسيا القصوى، حيث ترعرع فى بواديها. وكان اول اتصاله بالمدنية فى (كاثاى).

وعاد من مدن (كاثاى) الى مراعى السهول، موطنه. واخيرا فان حادث الـ(كووجلووك) ووصول التجار المسلمين اليه، علماه بعض الامور عن النصف الآخر من آسيا.

انه علم الآن، ان هنالك الوديان الخصبة التى لا تتساقط الثلوج عليها فيما وراء سلاسل حدوده الغربية. وعلم ايضا ان هناك الانهر التى لا تجمد، وان اناسا كثيريين، يقطنون مدنا اقدم من (قاراقوروم) او من (يەن كينغ)؛ ومن بلاد هؤلاء الغربيين تأتى القوافل المحملة بأحسن النصول الفولاذية، وافخر سلاسل الدروع، والاقمشة البيضاء الناصعة، والجلود الحمر، والعنبر، والعاج، والشذر، والياقوت.

ولكى تصله هذه القوافل عليها ان تقطع حدود آسيا المركزية، وهى شبكة من سلاسل جبال تمتد تقريبا بالاتجاهين الشمالى الشرقى، والجنوبى الغربى من (داغدووم باش) سقف العالم. فهذا الحد الجبلى كان قائما من قبل التاريخ، وهو جبل قاف العرب القدماء. لقد كان اجردا فى بعض انحائه، شامخا بين قبائل (كوبى) الرحالة وبين الباقى من العالم.

لقد تسربت بعض الشعوب الرحالة من هذه الحدود، بين وقت وآخر، منهزمة من مطاردة شعوب اخرى من الشرق البعيد. فالهينيون والآواريون توغلوا فى هذه السلاسل وغابوا فيها، ولم يعودوا ثانية الى الظهور.

تقدم غزاة الغرب حتى السفوح البعيدة من هذه السلاسل فى فترات، وقبل جنكيز بسبعة عشر قرن جاء ملوك الفرس مع فرسانهم المدرعين الى الشرق، فوصلوا حتى نهر الاندوس (السند)، و(سمرقند) والى بعد يشاهدون منه موانع (داغ‌دووم‌باش) اى حتى سفوح هذه الجبال الشوامخ.

وبعد عصرين تقدم الاسكندر المغامر بكراديسه الى المدى ذاته.

وهكذا نرى ان هذه السلاسل تؤلف حدا قاريا جبارا يفرق بين ساكنى السهول التابعين الى جنكيزخان وبين ساكنى الوديان فى الغرب . وكان الكاثائيون ينعتون هذه البلاد بكلمة (تاتسين) اى البلاد البعيدة.

قاد احد القادة الكاثائيين الموهوبين مرة جيشا الى هذه القفار. ومنذ ذلك الحين حتى الآن لم يجرأ جيش آخر على الحرب فيما وراء هذه السلاسل.

اما الآن فقد توغل (جه‌به،نويون) وهو اشد أراخنة جيوش المغول، فى وسط هذه السلاسل. وجال (جوشى) الى الغرب فى منطقة بوادى عشائر الا (قيپجاق). وقد اخبرنا بان هنالك طريقين يشقان تلك السلاسل الجبلية.

وقد مال جنكيزخان لمدة من الزمن الى التجارة. ولقد كانت اموال الشعوب الاسلامية القاطنين وراء حدود آسيا المركزية، واسلحتهم على الاخص، من وسائل الرخاء والترف العظيمين الى المغول البسطاء فى عيشهم. وقد شجع تجاره من رعاياه المسلمين، على ارسال قوافلهم الى الغرب.

وعلم الخان ان اقرب جار له فى الغرب كان (شاه‌خوارزم) (٧) وهو من فاتحى مملكة واسعة الانحاء. فارسل الخان الى هذا الشاه الرسل ومعهم رسالة هى :ـ

«منى اليك التحية. انى عالم بسلطانك وبسعة امبراطوريتك العظمى. ونظرتى اليك كنظرتى الى اعز ولد لى. هذا واعلم انى فتحت (كاثاى) وتغلبت على الكثير من الشعوب التركية. فبلادى هى معسكر المحاربين ، ومنجم الفضة . وانى لا ارغب فى بلاد اخرى. ويظهر لى ان لنا فى تشجيعنا التجارة بين رعايانا الفوائد المتبادلة . ..

كانت الرسالة هذه، من مغولى ذلك اليوم، رسالة رقيقة. وجنكيزخان كان قد ارسل الى امبراطور (كاثاى) المتوفى ، الاهانة الصريحة الواخزة . والواقع، انه اليوم قدم الى علاء الدين محمد، شاه خوارزم، دعوة يدعوه فيها الى التبادل التجارى. ولكن كان فى رسالته شىء من الحط من كرامة الشاه ؛ اذ نعته بولده . وهذه كلمة تطلق فى الشرق على الاتباع والخدم وفى ذكره تغلبه على القبائل التركية وخزة، والشاه تركى.

حمل رسل الخان الى الشاه الهدايا الثمينة ومنها سبائك الفضة، واحجار اليشب الكريمة، واردية من الوبر الابيض . ولكن الوخزة آلمته فسأل : «ومن هو جنكيزخان ؟ اهو فى الحقيقة فاتح الصين؟» فأجابه الرسل بالايجاب. ثم عاد الشاه وسأل :ـ

«وهل جيوشه زاخرة كجيوشى؟» فرد الرسل، وهم مسلمون لا مغول، على هذا السؤال جوابا فيه الحذاقة والكياسة، هو «ان جيوش الخان يجب ان لا تقاس بجيوشه». فسر الشاه ووافق على التبادل التجارى . وقد سارت الامور سيرا حسنا مدة عام، او ما يقارب العام.

هذا وقد ذاع صيت جنكيزخان فى ذلك الوقت فى البلاد الاسلامية الاخرى. وكان شاه خوارزم فى حينها يضايق خليفة بغداد(٨) فاقنع بعض الناس الخليفة بان قضيته قد تلقى العطف والمساعدة من الخان ذى الظل الظليل القاطن فى حدود (كاثاى). فسار رسول من بغداد الى (قاراقوروم) وكان على الرسول ان يمر من بلاد الشاه للوصول الى الخان، ولذلك احتاطوا للامر وتدبروا له.

ويقول التاريخ ان نص الرسالة كتب على رأس الرسول بقلم من نار بعد ان حلقوا له رأسه. ثم امهلوا الرسول الى ان ينبت الشعر فى رأسه. واعطى الى الرسول نص رسالة الاستغاثة فكررها الى ان حفظها على قلبه. وسارت الامور فى مجراها كما يجب. ووصل موفد الخليفة الى خان المغول فحلقوا له رأسه ثانية فأثبت لهم هويته، والقى عليهم رسالته.

لم يهتم جنكيز خان للامر. ويحتمل قويا بان الرسول الفريد فى بابه والكتاب الخفى لم يؤثرا فيه التأثير الحسن. هذا، وهنالك العقد التجارى الذى قد تم بينه وبين الشاه.

ولكن تجربة المغولى التجارية انتهت انتهاء فجائيا. لقد صادر (ای نال جووق) حاكم (اوترار)، وهى قلعة من قلاع الخوارزمى فى الحدود، قافلة تجارية لمئات من تجار (قاراقوروم). واخبر (ای نال جووق) سيده الشاه، بان فى القافلة الجواسيس، وانهم انتحلوا لانفسهم صفة التجارة. ويحتمل كثيرا ان يكون ذلك هو الواقع.

وعلاء الدين الخوارزمى، دون ان يتريث ويتروى فى الامر كثيرا، ارسل الاوامر الى حاكمه بقتل التجار اجمعهم، فنفذ الحاكم الاوامر. وقد علم جنكيزخان بما حدث بعد حين، فاوفد الوفود الى الشاه محتجا على ما فعله، وقد استقبل علاء الدين وفد الخان، ولكنه استصوب ان يقطع رأس رئيس الوفد، ويحرق ذقون اعضائه.

وعندما عادت بقية السيوف من الوفد الى جنكيزخان، انسحب سيد (كوبى) الى جبل من الجبال وانعزل فيه لوحده متأملا فى الحادث مستوحيا. فقتل رسول مغولى، امر لا يغتفر، ويجب ان يعاقب الفاعل عليه. فالضغنات تقضى بالانتقام للاذى.

وقال الخان: «لا يمكن ان تكون شمسان فى السماء. او بالاحرى لا يجوز ان يكون خاقانان على وجه الارض..»

وهكذا اهتم للامر فارسل الجواسيس الى سلاسل الجبال. واغار السعاة بجيادهم وقرعوها بالمقارع فأخذوا ينهبون الصحراء نهبا ويستدعون الرجال للحشد تحت لواء القبيلة. وارسل الخان الى الشاه فى هذه المرة رسالة موجزة تنذره بسوء العاقبة.

«انت الذى اخترت الحرب، ولامرد للقدر. واننا نجهل العاقبة، وعلمها عند الله وحده.» (٩) ومهما كانت الامور بين هذين الفاتحين، فلا مناص من وقوع الحرب، وقد بدأت بينهما. وكان للمغولى الحذر، ما يبرر عمله فى شنها.

ولادراك ما قد يخفيه الدهر له، علينا ان نرجع الى ما وراء السلاسل حيث عالم الاسلام والشاه.

لقد كان ذلك العالم عالما حربيا، عالما يستسيغ الغناء بأذان اعتادت على سماع الانغام. انه كان عالما محاطا بالغصص والكروب الباطنية. لقد كان عالم الرق والعبودية، وعالم التهالك على المال والثروات. وكان عالما انهمك بالرذائل والخدع الى حد غير يسير. لقد كان عالما عهد بشؤونه الى الغاصبين، وصيانة نسائه الى الخصيان. عالما متوكلا فوض امره الى الله.

لقد كان عالما منصاعا لمبادىء وعقائد عديدة. وقد اول آيات القرآن تاويل متباينة. لقد كان عالما يتصدق على المستجدين، مغاليا بمظاهره، عالما يحتشد افراده في الافنية والشمس تلفحها للشغب، والتحدث عن هذا وذاك، عالما متكلا مبديا على منح عظمائه عليه. (١٠)ولكنه كان عالما يتجشم السفر في حياته مرة على الاقل لزيارة الحجر الاسود وهو في ركن من اركان الكعبة المسدلة عليها ستائر من المخمل في مكة. ففي هذا الحج، يتكاتف المسلمون ويجددوا فيهم العزم ثم يعودون الى اوطانهم، وهم معجبون بسعة بلادهم ووفرة المؤمنين.

وقبل عصور مضت، اوقد نبيهم نارا فحمل العرب شعلها الى الاقاصي، ومنذ ذلك الحين اتحدت الشعوب الاسلامية بكاملها في السير نحو غاية واحدة الا وهي الفتح. لقد وصلت امواج المجاهدين الاول غرناطة اسبانيا، ودوخت افريقيا الشمالية بكاملها وصقلية ومصر. وانتقل مع الايام سلطان الاسلام العسكري من يد العرب الى الاتراك. ولكن اليدين اتحدتا في الجهاد ازاء اهل الصليب المدرعين الذين جاءوا ليلووا ساعدهما ويخلصوا القدس من قبضتيهما.

والان في اوائل العصر الثالث عشر كان الاسلام في اوج قوته العسكرية وقد اندحر اهل الصليب الواهنين الى سواحل البلاد المقدسة.

وسلبت الموجة الاولى من الاتراك، آسيا الصغرى من جنود امبراطورية الاغريق المتفسخة.

واحتفظ الخلفاء، عاهلو الاسلام فى بغداد ودمشق بكل ما كان فى عهد هارون الرشيد والبرامكة من عظمة وازدهار. فالشعر والغناء، كانا من الفنون الجميلة. والنكت والملح كانت تخلق الرجال. وقد قال عمر الخيام وهو احد الفلكيين النبهاء بان الرجال الذين يؤمنون بان صفحات القرآن تنطوى على جميع العلوم الدنيوية، كثيرا ما كانوا يؤثرون النظر الى المخطوطات المنقوشة فى قعر كوب من الاكواب(١١).

وان عمر الخيام المفكر لم يستطع تجاهل عظمة الاسلام العسكرية الزاهية اذ قال :ـ

اترى الدنيا سوى دار سفار،
ذات بابين ظلام ونهار،
كم وكم من ملك جم الفخار
حل فيها برهة وارتحلا،
حين لبى دعوة الداعى المطاع.(*)

كان الخيام وهو يسطر رباعيته الحزينة يقف ويفكر فى دواوين جمشيد ومجالسه وفى عرش محمود الذهبى؛ ويتأمل فى ممكنات الفردوس الموعود الى هؤلاء الابطال من الاسلام.

لقد استقر كل من عمر الخيام وهارون الرشيد فى قبريهما منذ زمن بعيد. ولكن آل محمود الغزنوى حكموا الهند الشمالية واصبح خلفاء بغداد ادنى الى الحكمة العالمية وانغمسوا فى السياسة اكثر من الفتح. ولكن فروسية الاسلام التى يتيسر لها تناسى الاضطرابات الداخلية، والاتحاد ازاء عدو معتقدها، ما كانت اقل تألقا واقل حماسا عما كانت عليه فى عهد كان هارون الرشيد يداعب فيه رفاقه فى الراح والكؤوس.

لقد عاش هؤلاء الامراء سليلو الابطال المحاربين، فى عالم خصب؛ سالت فيه الانهر من الجبال المشجرة فسقت رمال الصحراء واطيانه، وانبتت فيها

(*) ذكر المؤلف المصراعين الثالث والرابع فقط، وهى من رباعيات (فتزجرالد) للخيام. وقد اثبتنا ترجمة السباعى للرباعية. الطبعة الثالثة، الصفحة ٤٨ . (المترجم).

الحقول الشاسعة وبساتين الفواكه اللذيذة. وايقظت الشمس الدافئة الادراك في الرؤوس، والرغبة الى الترف في النفوس. وقد صنع لهم الاخصائيون الماهرون سيوفهم من نصول فولاذية يمكن ليها. وتروس مطعمة بالفضة، فلبسوا الدروع المسلسلة واخوذ الفولاذية الخفيفة وركبوا الجياد المطهمة، وهي سريعة الجرى وان كانت قليلة التحمل. وقد وقفوا على اسرار اللهب النفطية ونيران الاغريق المهلكة.

وكانت حياتهم مفعمة باللهو واللعب، وقد يقال فيها انها هي :ـ

«الشعر والغناء، والعزف، والشراب الوفير، حلو المذاق.

«والنرد، والشطرنج، وميدان قنص، وباز، وفهد يعدو.

«وساحة وكرة، وبهو، وحرب، ومأدبة فاخرة.

«وجواد، وسلاح، ويد كريمة. والشكر لله وعبادته.(١٢)

وفي مركز الاسلام اعلن محمد شاه الخوارزمي نفسه سيد الحرب. وكانت مملكته تمتد من الهند الى بغداد ومن (آرال) الى الخليج الفارسي. وكانت سلطته هي السلطة العليا، باستثناء السلجوقيين الاتراك المنتصرين على الصليبيين، والمماليك في مصر. وكان هو الامبراطور فعلا. اما الخليفة، الذي تنازع معه، فلم يتمكن من تكران سيطرته عليه، فانحصرت سلطته في الامور الدينية وحدها كسلطة البابا.

انحدر محمد شاه الخوارزمي (*)، كما انحدر جنكيز خان من شعب رحال. وكان اجداده ارقاء، ومن حملة الكؤوس الى (ملك شاه) السلجوقي العظيم. فهو و(آتابيك) انه او «الاباء الرؤساء» ـ كانوا اتراكا. وهم من مقاتلي (توران) البواسل. أما هو فيمتاز ببعض الدهاء العسكري، وبالمامه بالامور السياسية، وبطموح ما وراءه من طموح.

فاننا نعلم عنه انه انغمر في الفسوق، وبقتل اتباعه تطمينا للرغائب. فقد

(*) نادرا ما تذكر مملكة خوارزم في صفحات التاريخ. لقد محاها المغول، كما ابادوا (قراخيتاي) وامبراطورية الـ (شين) قبل ان تصل الى ذروة علاها. وقوتها.

يقتل سيدا محترما من سلالة الرسول، ثم يطلب المغفرة من الخليفة. وان لم يغفر له الخليفة فعلته، اراد خلعه ونصب غيره. وهكذا بدأ الخلاف الذى ادى الى ايفاد رسول من بغداد الى جنكيزخان.

هـذا وان محمـد شـاه كان له نصيب فى الطموح، وولـع فى حب الامتداح. وكان يود ان ينعت بالغازى. وقد رفعه رجال حاشيته الى منزلة اسكندر ثان. وقد قابل مخادعات والدته بالظلم والعسف، وخاصم وزيره الذى كان يدير شؤونه وامواره.

الف جيشه من اربعمائة الف محارب من الاتراك الخوارزميين وكانت له عدا ذلك الجيوش الايرانية المتهيئة لتلبية دعوته. والكثير من الفيلة، وارتال جمال كثيرة، وجماهير غفيرة من المسلمين الرقيق. (١٣)

ولكن تحصيناته الاساسية للدفاع عن امبراطوريته، كانت سلسلة المدن الكبيرة الممتدة على طوار الانهر ومنها (بخارى) مركز دور العلوم الاسلامية المكتظـة بالجوامـع، و(سمرقنـد) ذات الجـدران الشامخة وجنائن الافراح والمسرات، و(بلخ) و(هرات) قلب (خراسان).

اما جنكيزخان فقد كان يجهل هذا العالم الاسلامى، وشاهه الطموح، وحشوده المقاتلين ومدنه المحصنة.

الفصل الثالث عشر

الزحف الى الغرب

كانت الضرورة تقضي بحل القضايا وتسوية الامور قبل ان يشرع جنكيز خان بالزحف بجيشه على المسلمين الاتراك. فهو عندما سار لفتح الصين استصحب معه الاغلبية من محالفيه الصحراويين. اما الان فعليه ان يترك وراءه امبراطورية واسعة، وان يغيب عنها عدة اعوام، وهي امبراطورية حديثة العهد يجب السيطرة عليها وادارتها وان كان من ما وراء سلاسل الجبال.

لقد عالج هذه القضية معالجة بطريقة من طرقه. ولقد جعل (موهوولى) نصيب (كاثاى) النار والحديد، ومن ورائه امراء (لياو) منهمكون في توطيد الامن والسكينة في البلاد. اما جنكيز خان فقلب اعالى البقية الباقية من امبراطوريته الى سافلها باحثا عن الوجوه في البلاد المحتلة؛ عن الرجال من ذوى البيوتات، الطموحين الذين قد يثيرون القلق عند تغيبه. فانه ارسل الى كل من هؤلاء رسولا، وقرصا من فضة(١٩)، ودعوة يدعوه بها الى الانضمام الى الجيش متظاهرا بافتقاره الى خدماتهم. ولكن الخان استصحبهم معه الى خارج حدود الإمبراطورية.

واراد ان تبقى الحكومة تحت سيطرته اينما حل ورحل، والاتصال بمجلس الخانات في (كوبى) بواسطة السعاة. وقد ترك احد اخوانه حاكما في (قاراقوروم).

لقد تم له ذلك، وبقيت القضية الخطيرة الثانية ماثلة امامه، الا وهي الزحف بجيش قوامه ربع مليون من الرجال، من بحيرة (بائى كوول) عابرا بهم سلاسل آسيا المركزية الى ايران، على مسافة الفي ميل باتجاه مباشر، وفي بلاد لا يغامر السواح في يومنا هذا في التوغل فيها الا وهم في قوافل مجهزة باكمل الوسائل والوسائط. وكان ذلك مسيرا، يستحيل على جيش عصرى ان ينجزه وهو بتلك الوفرة من العدد.

وما كان فى شك من قدرة جيشه على ذلك المسير البعيد المدى. وقد الف فى سفره هذا جيشا قادرا على التوغل فى اية بقعة من بقاع الارض. ولم يعد ان يكون من نصيب نصف هذا الجيش رؤية (كوبى) ثانية. ولكن البعض الاخر من المغول ساروا الى تسعين درجة من خط الطول ذهابا وايابا.

وفى ربيع عام ١٢١٩ اصدر اوامره الى الجيش ليتجمع فى مراعى نهر فى الجنوب الغربى. ففى هذه المراعى اجتمعت الفرق وعلى رأس كل منها عميدها، وقد جر كل فارس وراءه اربعة او خمسة جياد، وسيقت القطعان العظيمة الى المراعى فرعت ضيلة الصيف وترعرعت. ووصل اصغر انجال الخان لتسلم زمام القيادة. وفى اول ايام الخريف القصيرة ركب الخان وسار من (قاراقوروم).

وقد وجه كلمة الى نساء الامبراطورية القبلية وقال: «وانتن قد لا تطقن حمل السلاح. ولكن لا يزال هناك واجب عليكن، الا وهو الاعتناء ببيوتكن حتى رجوع الرجال اليها، واذا اراد السعاة والوجوه ـ النيونات ـ المتجولون المبيت وجدوا المأوى النظيفة والطعام الشهى. فهكذا تزيد الزوجة فى شرف المحارب».

ويظهر لنا انه وهو جاد فى مسيره نحو عدوه، بادر لنفسه بانه سوف لا يرجع الى موطنه حيا. لقد مر من ارض مشجرة جميلة، ونظر الى حرش من الصنوبر عال فقال :ـــ

«ما اجمله من مكان للايائل الصغيرة، وما اجمله من مكان للصيد. يانه من مراح جميل لرجل شيخ».

واصدر الاوامر القاضية بقراءة الـ(ياصا)، القوانين التى قننها جهرا اذا مات، وان ينصاع الرجال ويسيروا عليها طيلة حياتهم. اما كلماته التى وجهها الى ضباطه وجيشه فهى :ـــ

«سيروا معى، لنمحق بقوتنا الرجل الذى ازدرى بناء واحتقرنا. انكم ستشاركوننى بانتصاراتى. وليكن قائد العشرة، آمر الحضيرة، منكم منتبها مطيعا

كقائد العشرة آلاف، قائد الفرقة. ومن يخالف او يفشل فى انجاز واجبه سيفقد حياته، ونساءه، واولاده.»

وبعد ان عقد اجتماعا حضره اولاده وعمداؤه ورؤساء اخرون، ركب ليتفقد شؤون معسكرات جيشه العديدة، وكان حينذاك فى السادسة والخمسين من عمره وقد تجعد وجهه العريض، واخشوشن . وجلس على سرج مرتفع القوسين على جواد اشهب رهوان ، عاكفا ساقيه بركابين قصيرين. وزين قبعته اللباد المخروطة الشكل بريش نسر، وتدلى منها على صدغيه ربطتان حمراوان عريضتان من النسيج، وهما كقرنى وحش، اذا هبت الريح الشديدة ربط القبعة بهما. وقد تمنطق بنطاق من قطع ذهب، او من نسيج ذهب، حول معطفه الطويل الذراعين، وهو من فرو السمور. وهكذا فتش راكبا مارا بين صفوف سراياه المتكتلة، ولم يتكلم الا قليلا. لقد كان جيشه احسن تجهيزا من قبل، وقد درعت فرق الصاعقة منه جيادها بالجلود المقددة، حمراء او سوداء. وقد تنكب كل فارس من فرسانه بقوسين وبكنانة احتياطية مقفلة كى لا تترطب السهام. وخوذهم خفيفة، صالحة لاغراضها ذات ذؤابات جلدية رصعت بزرد حديد لصون الرقاب من الخلف.

ولم تتدرع وحدات جيشه، الا وحدة الحرس الخاص منها. وقد علق فرسان الخيالة الثقيلة الفؤوس فى احزمتهم علاوة على السيوف التى حملوها. ولفوا حول وسطهم ايضا المواهق، حبال بانشوطات للخنق الخاطف، او حبال لجر عجلات الحصار او العجلات الغاطسة فى الاوحال او الرمال. اما تجهيزات الجندى فكانت قليلة خفيفة الوزن. وقد تشدد الخان فى جعلها على تلك القلة والخفة، وهى كيس جلد يحتوى على عليقة للجواد ووعاء للجندى، وقليل من شمع العسل ومبرد لسن رؤوس السهام، ووتر قوس احتياطى. وبعد ذلك، فكان مع كل جندى ارزاقه الاحتياطية، وهى اللحم المقدد المدخن، واللبن المجفف. ويمكن وضع هذا اللبن المجفف فى الماء واذابته وتسخينه.

وما كان المغول الان، الا متوغلين فى طى الطرق، ومعهم الكثير من الكائنين، وفرقة حديثة. والظاهر ان هذه الفرقة كانت مؤلفة من عشرة

آلاف جندي وآمرها كاتائيا اسمه (كو ـ باو ـ يوو) او رئيس المدفعية او قائدها، اما رجال فرقته فكلهم من المهرة في صنع آلات الحصاد الثقيلة واستعمالها كالقاذفات والمناجق ومرسلات النار. كما ويظهر لنا ان هذه الآلات ما كانت تسير مركبة، بل مفككة تحمل اقسامها في العجلات. وسنرى في السطور القادمة ال (هو ـ باو) مدفع النار وهو يطلق نيرانه.

* * *

سار الجيش ببطء بين السلاسل الصغيرة، وهو يسوق امامه قطعان المواشي. وكان مؤلفا من مئتي الف محارب؛ وهذه قوة كبيرة لا يمكن ان تسير سوية، اذ كان عليها ان تتموّن وتعيش من مواشيها ومن البلاد التي تمر بها. ولذلك سار (جوشي) نجل جنكيز خان الاكبر مفرزا بفرقتين، على ان يلتحق بـ(جه به ، نويون) في الجانب الثاني من (تيانشان). واما الباقي من الجيش، فتفرق وسار معقبا الوديان.

وفي اوائل المسير وقع حادث كان على خلاف ما تنبأ به المنجمون. لقد تساقطت الثلوج قبل آوانها، فارسل الخان وطلب (يي ـ ليو ـ جوتساي) وسأله مغزى هذا الحادث. فأجابه الكاتائي الفطن : «ان ذلك يدل على ان سيد البرد والبلاد الشتائية سيغلب سيد الاجواء الحارة..»

ولابد ان قاسى الكاتائيون ما قاسوا من ذلك الشتاء. وكان من بينهم من يحسن تخمير الحشائش لمعالجة الامراض. فاذا ركز المغول رمحا امام خيمة وسنانه في الارض دلوا على مريض مغولي في الخيمة، ودعوا علماء الحشائش والنجوم هؤلاء للمعالجة. ورافق الجيش الكثير من غير المحاربين كالمترجمين والتجار ليقوموا بواجب التجسس بعد زمن، والحكام لستلموا زمام الادارة في المناطق المحتلة. ولم يهمل المغولي امرا من الامور، فكل صغيرة او كبيرة منها سبق وان فكر بها واحتاط لها، ومن بين ذلك ملاحظة المواد الضائعة، اذ يجب ان يعتنى في شأنها فعينوا ضابطا مسؤولا عنها.

وكان على الجيش ان يلمع جميع الاقسام الحديدية في الدروع

والسروج، كما يجب املاء جعب التجهيزات املاء نظامياء وقد بدأ المسير عند دق طبول الفجر، فسارت القطعان اولا واعقبها المحاربون والعجلات. وكان يقتضي اللحاق بالقطعان عند المساء. وعند المبيت يركز لواء القائد فيقام المعسكر حوله، وينزل المحاربون خيامهم وبيوتهم من ظهور الجمال، ومن العجلات.

واذا ارادوا عبور الانهر ربطوا الجياد سوية باقواس السروج. وقد يربطون عشرين منها في صف واحد فتسبح عابرة وصدورها مقتحمة المجرى، وقد يسبح الفرسان احيانا وهم متمسكون بذيولهاء وتراهم يضعون غصنا من الاغصان في فوهة جعبة التجهيزات ويشدون وثاقها شدا محكما لكي تطوف وهي مربوطة بحزام المحارب. وهم سيعبرون الانهر المنجمدة ايضا بعد قليل من الزمن.

غطت الثلوج كل شيء حتى كثبان رمال الصحارى، واخذت اشجار الطرفاء والاثل الذابلة تترنح امام الرياح العاصفة، كما تترنح طيوف الرجال الشيوخ. ونصبت قرون الايائل او الغزلان كانصاب اشرت بها النياسم والطرق بين اكوام الثلوج ومناسفها.

انحدرت فرقة (جوشي) القبلية الى الجنوب منحدرة من خوانق ارتفاعها سبعة الاف قدم الى (به ـ لوو) طريق الشمال العظيم، في اعالى (تيانشان). فهنا في اقدم الطرق التجارية الاسيوية رأوا الارتال من الجمال الشعثة وهي متثاقلة في سيرها على اصوات أجراس تصدأت، وقد قطروا رسن الواحد بمذنبة الاخر، والمئات منها تحمل على ظهورها الاقمشة والرز وبضاعات متنوعة اخرى وهي تعقب رهطا من الرجال وكلب.

وسار القسم الاكبر من الجيش ببطء اكثر الى الغرب، منحدرا الى داخل المضايق، متعلغلا فوق البحيرات المتجمدة الى البطحاء المكسوة بالثلوج من مدخل بلاد الا (سه نغ) الطبيعي وهو المضيق الذي ولجته جميع القبائل الرحالة من اعالى آسياء وهنا لطمتهم الرياح وصفعهم البرد الشديد، ولو عصفت (بوران) عواصف الريح السوداء وهم في المضيق لجمدت قطعانهم

بكاملها. لقد مات حتى الان اكثر القطعان وذبحوا الكثير منها ايضا، وصرفوا آخر ما ادخروه من العلف، واضطروا الى التخلي عن العجلات، ولم يبق لديهم الا اقوى الجمال.

وكتب (يي ـ ليوو ـ جوتساي) عن المسير الى الغرب فقال «كانت الثلوج حتى في اواسط الصيف متراكمة في هذه الجبال. وقد اضطر الجيش الى تنحية الثلوج فاتحا له طريقه. وكانت اشجار الصنوبر والتربين سامقة كانها تناطح السماء. وان الانهار في غرب (شين‌شان)، الجبال الذهب، تجري غربا».

ولصيانة الجياد غير المنعلة لفوا حوافرها باقمطة من جلود الياق والظاهر ان الخيل اصبحت مفتقرة الى العلف، واخذت اوردتها تدمى.

واخذ المحاربون عند توغلهم في السلاسل الغربية فيما وراء «مدخل الرياح»، يقطعون الاشجار ويشقون الافلاق الكبيرة لتشييد الجسور منها على المخانق والمهاوي، واخذت الخيل تحفر الثلوج بحوافرها للعثور على الطحلب الجاف والكلأ اليابس. واخذ الصيادون يتعقبون القنيص. وهكذا اندفع ربع مليون من البشر في اقسى اقاليم آسيا العليا برودة، وتجشموا المتاعب والمصاعب التي قد ترسل فرقة عصرية كاملة الى المستشفيات. ولكن المغول لم يكترثوا للامر اكتراثا خاصا، فانهم اذا التقوا بفراء الانعام وجلودها تحللوا المبيت تحت الثلوج الهاطلة الكاسحة، واذا مستهم الضرورة احتموا بخيمهم المكورة الثقيلة. وان افتقروا الى الطعام فصموا وريد جواد وامتصوا منه قليلا من الدم ثم خيطوه.

انهم ساروا، وتشتتوا فوق مائة ميل من الاراضي الجبلية؛ والمزالق تتزلق من ورائهم وعظام البهائم الغاطسة تشير الى آثارهم.

واصبحوا قبل ذوبان الثلوج، في السهول الغربية فحثوا الجياد وساروا مسرعين حول بحيرة (بالقاش) المنجمدة المعرضة للرياح. وعندما اعشوشبت الارض للمرة الاولى، كانوا يتسللون الى اخر طائعة من (قارا ـ طاو) السلسلة السوداء. لقد طووا اول الف ومئتين ميل من سيرهم وهم على جياد هزيلة.

والان وقد اقتربت الفرق العديدة من بعضها البعض، وبدأ ضباط الارتباط يغيرون على جيادهم جيئة وذهابا بين القيادات. والف التجار الذين تخاتلوا وتظاهروا فى انهم من غير المحاربين المفارز الثنائية او الثلاثية وابتعدوا وراء تصيد الاخبار. ثم ارسل الجيش حجابات الاستطلاع امام كل رتل من ارتاله.(١٤)

وفتح الجنود جعب التجهيزات، ونظفوا ما فيها، وعدوا السهام، ثم اجتمعوا حول النيران، وهم يتضاحكون حيث جثا المغنون يرددون اناشيد الابطال الغابرين، والسحر العجيب.

ومن بين الغابات كانوا يشاهدون من تحتهم نهر (السير) ـ سيحون ـ العريض اول حدود المسلمين، وقد طغى الان بسيول الربيع.

obeikandl.com

الفصل الرابع عشر

المعركة الاولى

اشتبك مع المسلمين، فى هـذه الغضون تحت سقف العـالم كل من (جوشى) و (جه‌به، نويون) بمعركة حامية يجدر بنا ان نذكر عنها ما تيسر.

توغل الشاه المسلم فى ميدان القتال قبل المغول. وكان قد رجع حديثا من انتصاراته فى الهند، فحشد جيشه البالغ اربعمائة الف مقاتل، وجمع آتابيكاته، وعزز اتراكه بفرق من العرب والفرس. قـاد جيشه هـذا الى الشمال باحثا عن المغول الذين لم يظهروا حتى ذلك الحين فى ساحة القتال. ولكنه وقع على قسم من دوريات (جه‌به، نويون) فهاجمها وهى فى غفلة عنه. فهؤلاء الرحل المرتدون الفراء فوق جيادهم الشعث، امسوا هدفا لازدراء الخوارزميين المتأنقين فى ملبسهم. هذا وعندما جاء جواسيس الشاه له بالاخبار عن جيش المغول، لم يغير الشاه رأيه فقال : «انهم قهروا الكفار وحدهم، اما الان فقد تجمعت رايات الاسلام عليهم.».

وبعد مدة قليلة ظهر المغول فى الميدان. فانحدرت المفارز من المرتفعات نحو نهر سيحون (السير) العريض، فدخلوا القرى فى الوديان الخصبة ونهبوا القطعان وسلبوا كل ما تيسر فيها من الحبوب والطعام واشعلوا النيران فى المساكن، ثم تراجعوا من حيث اتوا وغيوم الدخان تحيط بهم، بعدما ابعدوا عجلاتهم ومواشيهم الى الشمال بحماية مفارز من المحاربين. وبعد يوم هاجموا قرية تبعد مسافة خمسين ميلا.

لقد جاء هؤلاء المتمونون المتقدمون، ليجمعوا المؤن الى القسم الاكبر. ولم يعلم احد من اين جاء هؤلاء والى اين ذهبوا. لقد دفعهم الى الامام (جوشى) الذى كان يتقدم من الشرق فى سلسلة واد طويل، نحو (به ـ لوو). انه كان يستطرق طريقا اسهل من الطريق الذى سار عليه القسم الاكبر من الجيش. ولذلك، نراه متقدما على جيش والده قليلا وهو يقطع السلاسل الاخيرة من الجبال.

ترك محمد شاه القسم الاكبر من جيشه عند نهر سيحون (السير) وتقدم نحو منابعه سائرا شرقا بين السلاسل. وسواء اعلم بزحف (جوشي) من كشافته، ام انه التقى بهذه الفرقة المغولية صدفة، فانه تصادم معها في ذلك الوادي الطويل الذي تكتنفه موانع الجبال المشجرة. وكان جيش محمد شاه متفوقا على الفرقة المغولية عدة اضعاف. وشاهد محمد شاه للمرة الاولى الكتل السوداء للمحاربين العزل من الدروع والتروس وهم في اردينهم الفرو والجلود. ففضل ان يشن هجومه قبل ان يلوذ هؤلاء الفرسان العجيبون بالفرار.

اتخذ اتراكه نظام المعركة، ونفخت الابواق الطويلة وضربت الصنوج.

وفي الوقت ذاته، نصح القائد المغولي رفيق (جوشي) اميره ان يتراجع فورا ساعيا وراء جر الاتراك نحو القسم الاكبر من الجيش. ولكن نجل الخان الاكبر اوعز بالحملة على المسلمين وقال: «لو تراجعت فما عسى ان اقوله لوالدي؟».

انه هو قائد الفرقة، وعندما اصدر امره بالحملة، امتطى المغول جيادهم دون تردد واعتراض. ولو كان جنكيز خان نفسه في مثل هذا الموقف لما وقع في هذا المأزق الحرج في الوادي، ولو امسى فيه، لانسحب امام صفوف الشاه الى ان شتتها في مطاردته. ولكن (جوشي) العنود دفع برجاله الى الامام وسرايا الانتحار تتقدمهم(*) ومن ورائها خيالة الاصطدام الثقيلة والسيوف بأيدي الاعنة والرماح الطويلة في الايدي اليمنى، وابقى الخيالة الخفيفة في حماية جناحيه.

تقدموا بهذا النظام دون ان يكون لهم مجال للمناورة او لرمي السهام، لعبتهم المحبوبة، فحملوا غاضبين مستعملين سيوفهم المعقوفة قليلا، وهي اثقل السيوف لديهم، ازاء سيوف الاتراك المحدودبة.

و ينبئنا التاريخ بان خسائر المسلمين كانت عظيمة، لا يتصورها العقل،

(*) (مانغووداي) او السرايا المنذورة لله.

وان الشاه امسى فى خطر بتقدم المغول وخرقهم صفوفه ووصولهم الى قلب الاتراك.

وقد شاهد الشاه، رايات المغول المقرنة على بعد رمية سهم. ولم ينج من الموت الا بما بذلته فرقته الخاصة من الجهد. ونجا (جوشى) ايضا من الموت، وهذا مايذكره لنا امير كاثائى كان فى قيادته.

ففى الوقت الذى تقدمت به اجنحة المغول واندفعت الى الامام، شن جلال الدين — اعز قادة الجيش الخوارزمى ونجل الشاه الاكبر وهو تركى محض؛ صغير الحجم نحيفه إسمر اللون قاتمه، شغوف بالسكر واللعب بالسيف — هجوما مقابلا اجبر به رايات المغول على التراجع، وافترق الجيشان فى اخر النهار. وفى الليل، لعب المغول لعبتهم المعتادة، وتوسلوا باحدى خدعهم. فهم اما حرقوا الاعشاب فى الوادى، او تركوا نيران معسكرهم تتصاعد طيلة الليل، بينما انسحب (جوشى) هو ورجاله من ساحة المعركة، ممتطين جيادا مستريحة وسروا مسيرة يومين فى تلك الليلة.

وعندما انبلج الصباح، واشرقت الشمس على محمد شاه وسراياه المهشمة فى الوادى وقد امتلأ باشلاء القتلى، وجدوا ان المغول غابوا وابتعدوا.

ان جولة واحدة فى ميدان المعركة ملأت نفوس الاتراك المنتصرين بالحيبة والهواجس. فالتاريخ يقول لنا، بأنهم اضاعوا ١٦٠،٠٠٠ رجل فى المعركة الاولى. ولا ريب ان هذا عدد مبالغ فيه، ولكنه يدلنا ولا ريب على تأثير اصطدام المغول بهم. ان المحاربين المسلمين كانوا يتأثرون على الدوام بنتائج المعركة الاولى نصرا كانت ام فشلا. وما كان تأثير قتال الوادى العنيف فى نفس الشاه باقل خطورة من ذلك التأثير. وقد جاء فى التواريخ :ـ

«لقد وقع الرعب والخوف من هؤلاء الكفرة، وكذلك تقدير بسالتهم فى نفس السلطان. فان ذكرهم احد له، قال انه لم ير قط رجالا فى حياته اشجع منهم، واثبت فى معمعة الوغى، واكفأ فى الطعن والقطع بالسيوف».

ولم يهتم الشاه من بعد ذلك فى البحث عن المغول فى المرتفعات. اما البلاد وهى قاحلة على كل حال، ففتشها المتمونون المغول واخذوا ما عثروا

عليه فيها من الطعام والعلف فأمست لا تعين او تمون جيشا عظيما كجيش الشاه. هذا وان خوفه من اعدائه الغرباء، دفعه على التراجع الى مدنه المحصنة على طوار نهر سيحون. فارسل الى الجنوب طالبا النجدات، وعلى الاخص من رماة السهام. واذاع فى مملكته بانه انتصر على عدوه انتصارا كاملا، وخلع على ضباطه الذين اشتركوا معه فى القتال.

اما جنكيز خان فاستمع الى اخبار المعركة الاولى من رسول اوفد له. فمدح (جوشى) وعززه بقوة قوامها خمسة الاف مقاتل. وامره بمطاردة الشاه.

* * *

سار مغول (جوشى)، الميسرة المفرزة من الجيش، فى بقعة من بقاع آسيا العليا المكتظة بالجنائن والبساتين؛ حيث يجد المرء عند كل جدول ماء قرية تحيط بها الاسوار البيضاء ويعلوها مرصد. وفى هذه القرى ينبت البطيخ، والاثمار الغريبة، وتعلو المنائر الرفيعة وهى تسمو على اشجار الجوز والصفصاف. والى جانبها يمينا وشمالا ترتفع التلول السوية، والاغنام ترعى فى منحدراتها؛ ومن ورائهاتحد قمم السلاسل المرتفعة المستوردة بالثلوج، الآفاق.

ويقول (يى - ليوو - جوتساى) القطن فى جغرافية الاماكن التى ساح فيها ان «فى (كووجان) او (خوقند) الرمان الكثير، والرمانة الواحدة بحجم الجمعين، وطعمها حامض حلو. والناس يعصرون الرمانة ويملأون به الكأس، وهو شراب لذيذ يطفىء الظمأ. اما الرقية الواحدة فوزنها خمسون رطلا، والرقيتان حمل حمار».

لقد كان هذا كله ترفا لخيالة المغول، بعد ما قاسوه فى الشتاء فى المضايق المنجمدة.

ساروا مع تمعج النهر فوصلوا الى مدينة (خوقند) العظيمة المسورة وكانت فرقة التعزيز المؤلفة من الخمسة الاف مقاتل بانتظار (جوشى)، وقد حاصرت (خوقند).

وكان قائد الاتراك فى هذه المدينة شجاعا باسلا. وهو تيمور ملك، او السيد الحديد. انسحب هذا القائد الى جزيرة ومعه الف جندى منتخب وتحصن فيها، فتحولت مجارى الامور تحولا غريبا.

فالنهر فى هذا المحل عريض، والجزيرة محصنة، وقد سحب تيمور ملك معه جميع الزوارق المتيسرة ولا يوجد هنالك اى جسر فوق النهر. واما المغول فكانوا قد تلقوا الاوامر بان لا يتركوا وراءهم مدينة محصنة. والان، فلا يمكن لهم الوصول الى الجزيرة بالاحجار التى تقذفها اسلحة الحصار.

وتيمور ملك مثال بارز للتركى الفطن الشجاع، الذى لاينغوى فيتخلى من الجزيرة. ولما كان (جوشى) يحذر التأخر عن التقدم نرى ان المغول حاصروها باسلوبهم المعتاد، وقد ترك (جوشى) نويونا فى قيادة الحصار، وسار متقدما مع مجرى النهر.

ارسل المغول المفارز الراكبة وجمعوا الحشور من الاهلين من الارياف. فجمعوا بهم الاحجار الكبيرة ونقلوها الى ساحل نهر سيحون فبدأوا يشيدون فى النهر ممرا حجريا نحو جزيرة تيمور ملك، الذى لم يبق متفرجا، بل انه اختار اثنى عشر زورقا، فشيد حولها احجبة من الخشب وانزل فيها رماته. واخذ يرسلها يوميا الى الساحل لرشق المغول بالسهام. اما المدفعيون من الكاثائيين فصنعوا سلاحا لرمى الزوارق. اننا نعلم ان القاذفات انما اخترعت فيما مضى لقذف الحجارة بها. اما سلاح المغول الجديد فهو لرمى اوعية النار به على الزوارق، وهذه الاوعية هى اكواز او اسطوانات صغيرة مملوءة بالكبريت الملتهب، او بمادة اخرى من مخترعات الكاثائيين. وهذا مما جعل تيمور ان يغير زوارقه فبنى حجبها بجدران وسقوف مائلة، والظاهر انها طليت بالطين؛ وقد فتحت المزاغل فى الاحجبة لرمى السهام منها.

دأبت المناوشات بين الاسطول والمدفعية ولكن الممر الحجرى امتد واقترب من الجزيرة فرأى تيمور ملك انه من المتعذر عليه الاستمرار على الاحتفاظ بالجزيرة. فأركب اتباعه باكبر الزوارق، ووضع اقوى محاربيه

فى الزوارق المصفحة واخلى الجزيرة وانحدر مع النهر ليلا على ضوء المشاعل؛ وقطع فى انحداره سلسلة ثقيلة مدها المغول بين الساحلين من النهر.

اما المغول فعقبوه على طوار الساحل بخيالتهم وهو فى انسحابه فى النهر. و(جوشى) الذى كان قد تقدمهم نصب جسر زوارق فى ادانى النهر، ووضع مهندسيه وهم متهيأون لمعالجة الاسطول برمى الحجارة عليه. وقد استخبر القائد التركى المنتبه بهذه التدابير فأنزل رجاله على قسم منعزل من الساحل فأضاعه المغول فى النهر وبحثوا عنه فى البر فوجدوه. وقد شاهد تيمور ملك، وهو ينهزم مع حرس صغير من المحاربين، البقية الباقية من اتباعه يتساقطون قتلى.

ثم بقى وحده منعزلا ولكنه استمر على الهروب، والمغول يطاردونه. وهو الخيال الفارس فتخلص الا من ثلاثة منهم، وقد قتل ادناهم اليه، وكان حظيظا فى قتله اذ اصابه بسهم فى عينه، ثم صرخ بالاثنين الاخرين قائلا: «ان فى كنانتى سهمين اخرين، وسوف لا يطيشان فى المرمى».

انه لم يفتقر الى رمى السهمين الاخرين، اذ هرب فى الليلة الثانية وتمكن من اللحاق بالبطل نجل الشاه فى الجنوب بعيدا. وكان المغول والاتراك يذكرون ويرددون شجاعة تيمور ملك، على حد سواء. انه صد فرقة من العدو لعدة اشهر. وقد اظهر لنا الحصار وسعة حيل المغول لمعالجة الامور الطارئة، غير المتوقعة خلال القتال. ولكن ما كان ذلك الا حادثا فى حرب ناشبة فى تلك الاوان، على جبهة الف ميل.

الفصل الخامس عشر

بخارى

عندما انحدر الشاه من السلاسل المرتفعة انعطف شمالا مع جيشه نحو نهر سيحون منتظرا وصول القبائل المغولية قاصدا قبول المعركة مع عدوه عند تشبثه بعبور النهر. وقد انتظر بدون جدوى.

ولتقدير ما حدث الان، علينا ان ننظر الى الخارطة. فالقسم الشمالى من هذه الامبراطورية الاسلامية، كان وديانا خصبة بعض الخصوبة، والبعض منها كانت سهولا قاحلة رملية، وقد انشقت الى طبقات غرينية حمراء يعلوها الغبار، وهى ارض موات. ولذا نرى ان المدن كانت على ضفاف الانهر، وبين التلال.

ويسيل فى هذه الارض السهلة نهران عظيمان بالاتجاه الشمالى الغربى الى مسافة ستمائة ميل ويصبان مياههما فى بحيرة (آرال) المالحة. واحد النهرين هو (السير) ـ سيحون ـ او نهر (جاكسارتس) كما سماه الاقدمون. وهنا نجد المدن المسورة وقد ارتبطت بطرق القوافل ـ وهى تؤلف مجموعة مملوءة بالاحياء البشرية والمساكن الممتدة المنتشرة فى البوادى. ويقع النهر الثانى الى جنوب نهر ـ سيحون ـ (السير) وهو نهر (آمو) ـ جيحون ـ وقد نعتوه قبلا بـ (اوكسوس) وعلى جوار هذا النهر ترتفع قلاع الاسلام ومنها (بخارى) و(سمرقند).

عسكر الشاه فيما وراء سيحون، وما كان يعلم عن خطة تقدم المغول امرا. وهو يتوقع وصول جيوش حديثة له وواردات ضرائب جديدة. وقد وافته الاخبار بان المغول شوهدوا ينحدرون من المضايق المرتفعة الى مسافة الفى ميل الى يمينه، او بالاحرى الى ما ورائه تقريبا.

والواقع هو ان (جبه، نويون) انفرز من (جوشى) وعبر الجبال الى الجنوب ملتفا من حول القطعات التركية التى كانت تراقب هذا الطريق المتجه الى (خوارزم)، وكان الان يسير مسرعا حول المنابع المنجمدة لمياه سيحون.

وتقع (سمرقند) على هذا الطريق، الى مسافة لا تزيد على مائتى ميل. وما كان مع (جه‌به، نويون) اكثر من عشرين الف مقاتل. ولكن اين للشاه ان يعلم بذلك ؟

وعوضا من ان تصل النجدات الى محمد شاه، امسى الان فى موقف قد ينقطع به اتصاله مع خط دفاعه الثانى والرئيسى الا وهو نهر جيحون والمدينتان الكبيرتان (بخارى) و(سمرقند). وهو بعد ان لاحظ الخطر الطارىء المحدق به قام ببعض امور لامه المؤرخون المسلمون عليه فى السنوات الاخيرة بمرارة. أنه شتت نصف جيشه بين مدنه المحصنة. فقد ارسل (٤٠،٠٠٠) محارب لتعزيز الحاميات على طوار سيحون. وسار مع القسم الاكبر من قوته الى الجنوب مفرزا (٣٠،٠٠٠) منه نحو بخارى ووجه الباقى الى (سمرقند) الموقع المهدد. لقد عمل ذلك باعتقاد منه ان المغول لا يستطيعون الاستيلاء على قلاعه، وانهم سينسحبون بعد موجة غارة وسلب. وعلى كل فانه قد اخطأ فى الحالتين.

والى قبل هذا، ظهر كل من نجلى الخان بالقرب من (اوترار) فى ادنى (سيحون) بالاتجاه الشمالى، و (اوترار) هى المدينة التى قتل حاكمها التجار المغول. وقد كان (اى‌نال‌جووق) الذى امر بقتل التجار لا يزال فى منصبه. ولعلمه بانه لا يلاقى عطفا من المغول، تحصن مع ابسل رجاله فى القلعة، وبقى يدافع عنها طيلة خمسة اشهر. انه قاتل حتى النفس الاخير، فبعد ان قتل المغول او اسر اخر رجل من رجاله التجأ الى حصن من الحصون وواظب على الدفاع حتى فرغت كنانته من الاسهم فالتجأ الى الحجارة، وصار يلقى بها على اعدائه. واخيرا غلب على امره واسر. وبالرغم من استماتته وتعنته فى الدفاع ارسلوه الى الخان فامر بان يصبوا مائع الفضة فى عينيه واذنيه، وهذه ميتة الاخذ بالثار. وقد هدم المغول اسوار (اوترار) واجلوا عنها سكانها بكاملهم.

وبينما كانت هذه الامور فى مجراها اقترب جيش مغولى ثان من (سيحون) واستولى على (طاشقند) كما اكتسحت مفرزة ثالثة منهم الاعالى الشمالية من

النهر مستولية على المدن الصغيرة الواحدة تلو الاخرى. واخلت الحامية التركية فى (جهند) المدينة وانسحبت منها، اما اهلوها فاستسلموا عندما تحشد المغول حولها ووضعوا سلالمهم على الاسوار لتسلقها.

فى مثل هذه المواقف وفى السنة الاولى من الحرب، كان المغول يذبحون جنود الشاه من الخاميات التركية عن بكرة ابيهم. اما سكان المدن، واغلبهم من الايرانيين المحليين، فيهجرون منها؛ ثم يبدأ المغول بعد ذلك بسلبها كما يشاءون.

وبعد ذلك يفرقون الاسرى الى صنوف. فمن كان شابا قويا من الرجال احتفظوا به للكد فى اعمال حصار المدينة الاخرى، وعلى ارباب الحرف منهم ان يصنعوا بمهارة ما يطلب منهم المنتصر. وحدث مرة، ان مثل بعد القتل سكان مدينة من المدن بتاجر مسلم اوفده المغول اليهم. ومن اجل ذلك بدأت حملة المغول بهجوم لا انقطاع له، فكانوا يملأون فراغ صفوفهم كلما سقط واحد منهم بمحاربين من الصفوف الخلفية الى ان استولوا على المدينة، ولم يتركوا بها حيا الا وذبحوه او ناضلوه بالسيوف والسهام فقتلوه.

لم يظهر جنكيز خان فى جميع المعارك التى شنت على طوار نهر (سيحون)، وقد غاب عن الانظار مستصحبا معه القسم الاكبر من الجيش. ولم يعرف احد من اين عبر النهر او الى اين ذهب ؟ والظاهر انه استدار استدارة واسعة فى صحراء الرمال الحمراء، اذ انه جاء من البوادى مسرعا فى تقدمه نحو (بخارى) من الغرب.

لم ينته الامر بالالتفاف حول جناح الشاه فحسب، بل انه كان فى خطر انعزاله عن جيوشه الجنوبية، وعن نجله، ونجداته، وعن بلاد خراسان وايران الغنية. وبينما كان (جهبه، نويون) يتقدم من الشرق، كان جنكيز خان يتقدم مندفعا من الغرب. ولابد ان الشاه وهو فى (سمرقند) قد شعر بان قوسى المصيدة كانا اخذين بالانطباق عليه.

وهو فى موقعه هذا، نراه يتورط فيقسم جيشه الرئيسى بين (بخارى) و(سمرقند) ويرسل الاخرين من آتابيكاته الى (بلخ) و(قوندوز). ثم نراه

يرحل من (سمرقند) وليس معه الا الرجال البارزون من حاشيته، وفيلته وجماله وحرسه الخاص. وقد استصحب معه عائلته وخزائنه قاصدا العودة على رأس جيش حديث.

وقد خاب الشاه، في امنيته هذه ايضا.

* * *

لقد انخذل عسكريا محمدُ الغازى الذى يلقبه شعبه بالاسكندر الثانى. اما المغول الذين كانوا تحت قيادة انجال الخان وهم يحملون النار والدمار على طوار نهر سيحون، فما كانوا الا ستارات يستترون بها الهجمات الرئيسة التى شنها (جه‌به، نويون) و(جنكيزخان).

لقد اندفع الخان مسرعا من الصحراء، وكان متعطشا الى الاندفاع تعطشا جعله ان لا يهتم بتدمير المدن الصغيرة فى طريق تقدمه، بل انه وقف عندها وطلب الماء منها لاسقاء خيله. وكان يتوقع ان يباغت محمدا فى (بخارى) ولكنه عند وصوله اليها وجد ان الشاه قد فر منها. لقد جابه الان احد القلاع الاسلامية الكبرى، وهى مدينة دور العلوم التى تحيط بها اسوار طولها اثنا عشر فرسخا (*)، كما ينبئنا بـه التـاريخ ، ويمر من وسطهـا نهر عريض بعض العرض تكتنفه الجنائن وبيوت الطرب والانس. وكان فى حماية المدينة (٢٠)الف تركى وعدد وفير من الايرانيين. وقد قطن المدينة فشرفها الكثيرون من الأئمة والسادة من علماء الاسلام ومفسرى الكتاب المبين.

وكانت تتأجج فى المدينة نار خفية، وهى حماس المسلمين التقاة الذين كانوا فى تلك الاوان فى حالة روحية معقـدة التعقيـد كله. وكان السور محصنا قويا، لا يمكن اقتحامه بغارة، ولو اراد الاهلون الدفاع عنه، لقضى المغول الاشهر قبل ان يتمكنوا من الاستيلاء على جانب صغير منه.

قال جنكيز خان قولا حقا : «ان حصانة السور الواحد لا تقل ولا تزيد عن شجاعة مدافعيه» وفى هذه الواقعة، اختار القـادة الاتراك التخلى عن الاهلين وشأنهم والانهزام للالتحاق بالشاه. وهكذا خرجوا ليلا من سور المدينة من باب الماء واتجهوا نحو (جيحون) ومعهم جنود الشاه.

(*)الفرسخ (فەرسەنك) ثلاثة اميال، او خمسة كيلومترات تقريبا ــ المترجم.

الامبراطورية الخوارزمية فى اوائل القرن الثالث عشر. والمخطط يبين الممالك الاسلامية الاخرى.

obeikandl.com

لم يكتف المغول بما اوقعوه بهم من الاذى حين خروجهم، بل انهم عقبوهم بثلاث فرق التقت بهم عند النهر فهجمت عليهم وذبحتهم ولم ينج منهم الا القليل.

اما شيوخ المدينة وحكامها وائمتها، فبعد ان وجدوا ان الحامية قد تخلت عنهم اجتمعوا وقرروا الخروج لرؤية طلعة الخان الغريب عنهم، مسلمين له مفاتيح المدينة ومستلمين وعده فى صون حياة الاهلين. وتحصن حاكم المدينة والبقية الباقية من المحاربين فى القلعة، فاخذ المغول يقذفونها بالاسهم النارية حتى اشتعلت سطوح الحصون.

تدفق سيل من الفرسان وملأوا شوارع المدينة الواسعة، واستولوا على مخازن الحبوب ومداخر الذخائر، ثم جعلوا من المكتبات اسطبلات لخيولهم فجن جنون المسلمين لرؤيتهم مرارا صفحات القرآن الكريم تطأها حوافر الخيل. والخان ذاته شد على عنان جواده ووقف عند بنية ضخمة، امام جامع المدينة الاكبر واستفسر عنه قائلا «اهذا بيت الامبراطور ؟» فقالوا له «انه بيت الله».

فتقدم بجواده وصعد درجات السلم ودخل الجامع ثم ترجل، وتقدم الى دكة القارىء حيث وضع القرآن العظيم. وهنا وقف بدروعه المكككة السوداء، وخوذته ذات العذبة الجلدية بين ارباب الدين، والعلماء الذين كانوا يتمنون نزول غضب السماء على ذلك الرجل الفظ ذى الدروع الغريبة، وخاطبهم قائلا :ـ

«جئت الى هذا المكان لاقول لكم بان عليكم ان تجدوا الطعام والعلف الى جيشى. ان الارياف خالية من الكلأ والحبوب، وان رجالى يتضورون جوعا. فافتحوا ابواب مخازن ذخائركم» (*).

وعندما اسرع شيوخ المسلمين من الجامع وجدوا ان محاربى (كوبى)، قد ولجوا مداخر الحبوب، وربطوا جيادهم فى الاسطبلات، واعلفوا لها.

---

(١) لقد حرفت التواريخ بدون استثناء هذه العبارة عند ذكرها على الوجه التالى : «دخل جنكيز خان راكبا الى الجامع وصرح برجاله» لقد جمع الكلأ، فاعلفوا لجيادكم . . .

لقد سار هذا القسم من الجيش سيرا اجباريا فى البادية عدة ايام ليقف متباطئا على عتبة البركة والخير.

غادر الخان الجامع وذهب الى ساحة المدينة حيث اعتاد الخطباء ان يحاضروا فى الجماهير فى المواضيع العلمية وفى المعتقدات. فسأل احد السادة الكرماء عن القادم قائلا : «ومن هذا الرجل ؟ ». فأجابه آخر : «صه. انه الغضب الذى سلطه الله علينا».

اعتلى الخان، الذى يحسن مخاطبة الجمهور؛ كما يقول ذلك التاريخ، منبر الخطيب وادار بوجهه الى سكان (بخارى) وسألهم قبل كل شىء الاسئلة العديدة عن دينهم. ثم انتقد الحج انتقادا مرا فقال ان الحج الى مكة انما هو غلط بحت. «اذ ان قدرة الله لم تكن منحصرة فى مكان دون اخر، بل هى شاملة جميع انحاء الارض».

تمعن الخان الشيخ فى وجوه سامعيه ليقف على مدى تأثير اقواله فيهم. انه اثار فى المسلمين مخاوفهم وشكوكهم. ولقد بدا لهم كهادم وثنى تتمثل فيه روح الوحشية القاسية، وهو مخلوق صغير مضحك. ولم تعرف (بخارى) داخل اسوارها الا الورع والتقى.

ولكنه اكد لهم وطمأنهم بقوله : «ان ذنوب ملككم عظيمة، وانا غضب السماء وسيفه. جئت لمحق امبراطوركم كما محقت غيره من الملوك. اياكم وان تحمدوه او تعاونوه..»

انتظر المترجم ليترجم اقواله، وقد بان له بأن المسلمين كالكاثائيين مشيدو مدن، ومؤلفو كتب، ولهم منافعهم له فى تموينه، وفى تسليمهم له اموالهم وثرواتهم، وفى اخباره بما يعرفون عن انحاء العالم الاخرى، وفى منحهم العمال والعبيد لرجاله واتباعه، وفى ايفادهم ارباب الصناعة والمهن الى (كوبى).

ثم اردف وقال : «لقد قمتم باطيب الاعمال فى تموينكم جيشى بالمؤن. والان فأتوا باموالكم الثمينة التى اخفيتموها الى ضباطى، ولا تهتموا بالملقى من متاعكم فى بيوتكم. فأننا سنرعاه.

لقد سجن المغول اغنياء (بخارى) وحرسوهم بجماعات حرس من

المغول، ولم يتخلوا عنهم ليلا او نهارا، وقد ذبحوا البعض منهم اعتقادا منهم بانهم لم يخرجوا لهم ما اخفوه من الثروات. وطلب ضباط المغول الراقصات والعازفين ليطربوهم ببعض القطع من اغانى المسلمين. فجلس الضباط وبايديهم كؤوس الخمرة فى الجوامع والقصور يتمتعون بمشاهد طرب امة عاشت فى المدن والجنائن.

دافعت الحامية فى القلعة، دفاعا مجيدا، واوقعت فى المغول الخسائر العظيمة، واثارت فيهم الغيظ والغضب قبل ان يغلب الحاكم واتباعه على امرهم. وبعد ان اخرجوا الاموال والثروات من المخابىء والسراديب والجدران ومن تحت الارض اخرجوا الاهلين من المدينة الى السهل لذبحهم. ويكشف لنا احد المؤرخين المسلمين عن لمحة واضحة عن شقاء ابناء جلدته ودينه، فيقول:-

«لقد كان يوما مخيفا، فالمرء لا يسمع الا بكاء الرجال ونحيب النساء وصراخ الاطفال الذين كتب عليهم الفراق الى الابد. لقد اختطف الوحوش النساء امام مشهد ممن كان لا حيلة لهم، الا الحزن والاسى. وقد فضل بعض الرجال الحملة على المحاربين والموت قتلا على رؤيتهم ما يلحق بنسائهم من العار . .»

انهم حرقوا الانحاء العديدة من المدينة واندلعت اللهب فى المبانى الخشب الجاف ومبانى اللبن، وارتفعت غيوم الدخان الكثيفة فوق (بخارى) وحجبت الشمس عنها. كما سبوا الاسرى وساقوهم نحو (سمرقند) ولكنهم وهم مشاة، لم يتمكنوا من مجاراة المغول الراكبين فى مسيرهم، فقاسوا العذاب وتجرعوا الآلام فى سيرهم الذى لم يطل...

* * *

لم يمكث جنكيزخان فى (بخارى) الا ساعتين. ثم اسرع قاصدا الشمال فى (سمرقند) وقد التقى فى طريقه بمفارز من جيشه العامل عند (سيحون). فبشره انجاله باستلائهم على المدن طوال الاتجاه الشمالى.

وكانت (سمرقند) اقوى مدن الشاه، ولكنه بدأ فى اقامة سور جديد ضخم حول جنائنها. غير ان تقدم المغول السريع لم يفسح المجال لاكماله،

فوصلوا اليه قبل ان يتم. وكانت المواقع الدفاعية القديمة قوية القوة الكافية، بما فيها اثنا عشر باب حديد تحيط بها الحصون من الجوانب. وكان فى حماية تلك المواقع الدفاعية عشرون فيلا مدرعا ومائة وعشرة الاف محارب من الاتراك الايرانيين. اما المغول فكانوا اقل عددا من الحامية. وقد تأهب جنكيزخان لحصار طويل، وجمع حوله سكان الارياف والاسرى ليعاونوه فيما يريد.

ولو بقى الشاه ورجاله فى (سمرقند)، او لو كان الدفاع عنها بقيادة قائد مثل (تيمور ملك) لدافعت المدينة ما دام لحاميتها ما تتمون به من الطعام. الا ان تأهبات المغول السريعة واستحضاراتهم الاصولية، ارعبت المسلمين الذين شاهدوا من بعد جموع الاسرى الكبيرة فظنوا ان قوة المغول اعظم مما هى عليها. وبالرغم من ذلك خرجت الحامية من حصارها حاملة على المغول، فوقعت فى مكمن من مكامن المغول المعتادة، وساءت احوالها. وقد أهلعت الخسائر التى تكبدها المدافعون فى هذه المعركة النفوس، فخرج الحكام والائمة فى صباح اليوم الذى كان المغول يتهيأون به للهجوم على قطاع من السور، وسلموا المدينة لهم. والتحق ثلاثون الف تركى (قانقالى) عن رغبة منهم بالمغول فرحبوا بهم واستقبلوهم استقبالا وديا والبسوهم اللباس العسكرى المغولى، ولكنهم ذبحوهم بعد ليلة او ليلتين من استسلامهم. فلا يعتمد المغول مطلقا على اتراك خوارزم، ولا سيما اولئك الذين ينقلبون، فيخونون مبادئهم.

وبعد ان ضموا عمال المدينة الماهرين الى الجيش، وفرقوا الرجال الاقوياء للاشغال الاخرى، اعادوا البقية الباقية من الاهلين الى بيوتهم. الا انهم بعد عام او اكثر من عام، عادوا فاستدعوهم ثانية للالتحاق بالجيش.

ويكتب (بى-ليوو-جوتساى) عن (سمرقند) فيقول : «يحيط بالمدينة من جميع اطرافها وبدون انقطاع، والى مسافة عشرات الاميال، البساتين والاحراش والجنائن وجنينات الاوراد وقنوات المياه والينابيع الجارية والبرك المربعة والاحواض المستديرة. ان سمرقند فى الحقيقة مدينة بديعة، خلابة..

الفصل السادس عشر

جولة الأراضة

استخبر جنكيزخان وهو فى (سمرقند) بان محمد شاه قد تخلى عن المدينة واتجه جنوبا. فقرر المغولى اسر الشاه قبل ان يتمكن من تنظيم جيوش حديثة يناوىء الفاتحين بها. وقد خاب الخان فى مسعاه لمقابلة ملك خوارزم وجها لوجه، فارسل طالبا كلا من (جه‌به، نويون) و(سوبوتاى) والقى عليهما اوامره :ـ

«طاردا محمد شاه حيثما ذهب فى انحاء العالم. واتيانى به حيا كان او ميتا. اصفحا عن المدن التى تفتح ابوابها لكما. واقهرا المدن التى تقاومكما بالغارات. وانى لاعتقد بأنكما لا تجدان هذا الامر صعبا كما يتراءى».

انه امر ينم عن واجب غريب فى بابه. فهو امر يقضى بمطاردة امبراطور فى اثنتى عشرة مملكة من الممالك، بل هو واجب القى على عاتق اشد عمداء الجيش مجازفة، واقلهم أخطاء. وقد وضع الخان بامرتهما فرقتين من عشرين الف مقاتل. اما القائدان فلم يضعا الوقت، بل شرعا من فورهما بالمطاردة جنوبا، وكان ذلك فى شهر نيسان من عام ١٢٢٠ وهو عام الافعى.

سافر محمد شاه الى الجنوب من (سمرقند) الى (بلخ) عند سفوح سلاسل افغانستان الشامخة، وقد تردد وتراوح على عادته. وكان جلال الدين بعيدا عنه فى الشمال، منهمكا فى جمع جيش حديث من محاربى البلاد الصحراوية بالقرب من بحر (آرال)، ولكن جنكيزخان وصل (بخارى) فأسرع بين الشاه وبين هذا الموقع. وهو موضع تحشد محتمل.

اجل ان الشاه فكر فى الدخول الى بلاد الافغان حيث كانت القبائل المحاربة تنتظره. ولكنه تردد أخيرا بين المشورات والنصائح المتباينة، وبين مخاوفه فاتجاه غربا مجتازا البوادى، نحو المنطقة الجبلية من ايران الشمالية فوصل الى (نيشابور) تاركا كما ظن بونا شاسعا مداه خمسمائة ميل بينه وبين المغول.

وجد كل من (جه‌به‌نويون) و(سووبوتاى) امامهما مدينة قوية محصنة تسد معبر جيحون (آمو)، ولكنهما عبرا خيولهما سبحا. وقد علما من قطعات الاستطلاع المتقدمة بان الشاه قد نزح من (بلخ) ايضا، فانعطفا غربا الى البوادى القاحلة وانفصلا بقوتيهما عن بعضهما بغية الحصول على حماية اعظم وللعثور على اعظم ما يمكن العثور عليه من المراعى لجيادهما.

لقد كان لكل فارس من الفرقتين المختارتين عدة جياد وكلها متعافية. وكان العشب عند الجداول المتبعثرة والآبار طرى حديث النبت. والظاهر انهما قطعا ثمانين ميلا فى اليوم الواحد، وفرسانهما يبدلون جيادهم بين القينة والاخرى، ولم يترجلوا الا عند الغروب لتناول ما يطبخ من الطعام. وهكذا جاءوا الى جنائن (مرو) القديمة واسوارها البيضاء، فى حدود القواحل القاصية.

وبعد ان اقتنع القائدان بان الشاه لم يكن فى هذه المدينة، اسرعا حضرا منحدرين الى (نيشابور) فوصلا بعد وصول الشاه اليها بثلاثة اسابيع. وقد سبق ان علم الشاه بتقربهما منه فهرب منها مدعيا انه يرغب فى الصيد. وقد سدت (نيشابور) ابوابها بوجه الاورخانين فحملا عليها حملة شعواء، وفشلا فى اقتحام الاسوار ولكنهما اقتنعا ايضا بان الشاه لم يكن داخل دفاعات المدينة.

انهما علما بالواقع ثانية، فاتجها غربا وسارا على طريق القوافل المؤدى الى (الخزر) وهما يشتتان فلول جيوش الشاه التى اختارت الفرار على هذا الطريق تخلصا من هول المغول، وبالقرب من (طهران) الحديثة التقيا بجيش ايرانى مؤلف من ثلاثين الف مقاتل فقضيا عليه. ثم افترقا ثانية، وقد تلاشت الان جميع الآثار التى تدل على الامبراطور المنهزم، فاتجه (سووبوتاى) شمالا متوغلا فى المنطقة الجبلية، واسرع (جه‌به‌نويون) جنوبا على طوار حافة صحراء الملح. وقد غادرا الان منطقة خوارزم ذاتها، كما سبقا بذلك انباء قدومهما.

وفى خلال هذه الحوادث، ابعد محمد شاه اهل بيته اولا ومن ثم خزائنه. وودع صناديق جواهره فى حصن من الحصون ـ وقد عثر المغول

عليها بعد حين ـ وقرر السفر الى بغداد حيث كان فى منصب خلافتها الخليفة(٨) الذى تنازع معه الشاه قبل مدة من الزمن. وقد اصطفى له من هنا وهناك بعض الرجال، ولم يتجاوز عددهم بضع مئات فاستطرق الطريق العام نحو بغداد.

ولكن المغول ظهروا عند (همدان) فى اثر حوافر خيله. فتفرق من حوله رجاله ووطأتهم خيل المطاردين. وقد اخطأته بعض السهام التى صوبت عليه، دون ان يعرف المغول هويته. انه تخلص ونجا، واسرع راجعا نحو (الخزر)، فامتعض بعض محاربيه الاتراك وعصوا أمره. وفضل الشاه ان يلجأ الى خيمة صغيرة نصبت بجانب خيمته. وفى ذات صبح نهض ورأى ان السهام قد ملأت الخيمة التى هجرها، فناشد احد الضباط قائلا «اما من ملجأ الجأ اليه تخلصا من صاعقة المغول» فنصحوه ان يركب سفينة فى (الخزر) وينزل فى جزيرة حيث يختبىء فيها الى ان يتمكن ابناؤه وآتابيكاته من تجييش جيش قوى للدفاع عنه.

وهذا ما اتبعه الشاه. انه تنكر ومعه البعض ممن لا شأن لهم من الاتباع فتوغل فى المضايق ناشدا مدينة على الساحل الغربى من البحر. فوصل الى مدينة للسماكين والتجار وهى منعزلة هادئة، وفى ذلك الكفاية له. ولكن الشاه، وهو مضطرب مريض وقد خسر ديوانه، وعبيده، ورفقاء كأسه نراه الان لا يريد ان يتنازل، ويضحى بشهرة اسمه. انه اصر على ان يصلى فى الناس فى الجامع، وبذلك لم يخف هويته طويلا.

لقد اخبر عنه، احد المسلمين الذين ظلمهم فيما مضى، عند المغول الذين شتتوا جيشا ايرانيا اخر فى (قزوين) وهم يبحثون عن محمد بين التلول، فاسرعوا نحو المدينة التى ضمته ودخلوها فى وقت كان قد تهيأ فيه لركوب زورق سماك للهروب.(*)

تطايرت السهام نحوه ولكن الزورق اقلع من الساحل، وقد خاض البعض من المغول وهم فى اوج حماسهم الماء بجيادهم واستمروا على السبح

(*) الى جزيرة (آب‌سكون) الصغيرة الرملية فى بحر (قزوين) او (الخزر) او (آب‌سكون) كما كانوا ينعتونه حينذاك. المترجم

مطاردين الزورق الى ان خارت قواهم وتعبت خيلهم فابتلعتهم الامواج .

هذا وان لم يقع الشاه فى قبضتهم فانهم قتلوه أدبياء ثم أنهكت الامراض سيد المسلمين ونزلت المصاعب عليه فمات بعد حين فقيرا معدما فى جزيرته وكان كفنه ثوب احد اتباعه.

* * *

لم يطلع (جه‌به، نويون) و(سووبوتاى) القاسيان المحنكان اللذان تلقيا الاوامر للقبض على الشاه حيا او ميتا، على ان ارض الجزيرة القاحلة التى التجأ اليها امست مدفنه. فهذا بائس اخر لم تنصفه الايام باحسن مما انصفت (واى‌وانـغ) امبراطور كـاثاى و (بره‌سته‌رجون) ذاتـه، و (توكتـابك) و(كووجلووك). اجل انهما لم يطلعا على موته، ولكنهما ارسلا الى الخان كل ثرواته وخزائنه التى جمعها (سووبوتاى) باعتنائه المتصف به، كما سبا له اكثر اهل بيته، واعلماه برواية هى انه هرب الى الشرق على ظهر سفينة.

ولاعتقاد جنكيزخان بان محمد شاه لابد وان يسعى للالتحاق بولده فى (اورغنج) مدينة الخانات، ارسل فرقة باتجاه تلك المدينة.

و(سووبوتاى) الذى كان يقضى الشتـاء فى مراعى الخزر المستورة بالثلوج رغب فى المسير نحو الشمـال حول البحر للالتحـاق ثانية بالخان؛ فارسل مراسلا الى (سمرقند) طالبا السماح له للقيام بجولته هذه. فوافق الخان على طلبه واوفد له عدة الاف من التركمانيين لتعزيز جيشـه. وكان (سووبوتاى) يجند لاغراضه الخاصة الجنود من بين الاكراد الاشداء. وبعد ان سار المغول قليلا الى الجنوب ليحاصروا ويهاجموا المدن الخطيرة فى طريقهم وهم يطاردون محمد، اتجهوا شمالا وتوغلوا فى القفقاس.

انهم اغاروا على بلاد الكرج، فنشبت معارك حامية بين المغول والمقاتلين الجبليين. بينما اختفى (جه‌به‌نويون) فى جانب من الوادى الطويل المؤدى الى (تفليس)، والتجأ (سووبوتاى) الى الخدعة المغولية القديمة بتظاهره بالانهزام. وهكـذا اندفـع خمسمائة الف محارب كامن مهاجما جنـاح الكرج الذين تكبدوا الخسائر العميمة فى المعركة.

فتح المغول طريقهم وتسللوا فى مضايق جبال القفقاس، وولجوا باب الاسكندر الحديدية. وعند اندفاعهم على المنحدرات الشمالية من الجبال، التقوا بجيش من ابناء الجبال، الآلانيين والشراكسة والقبجاقيين، وقد تجمعوا لمنازلتهم. وكان هذا الجيش متفوقا عليهم تفوقا عديديا عظيما، وقد سد عليهم طريق الرجوع والانسحاب. الا ان (سووبوتاى) نجح فى تفريق القبجاقيين الرحل من الاخرين، وعندئذ اغار المغول على صفوف الآلانيين والشراكسة البواسل.

ثم، ان هؤلاء الشقاة الذى تدفقوا من (كاثاى) وهم يعقبون القبجاقيين، العشائر الرحل اليقظة، فى بوادى الملح فيما وراء (الخزر) شتتوهم شر مشتت ودفعوا بهم بتوءدة الى الشمال، الى بلاد الامراء الروس.

وفى هذه البلاد التقوا بعدو جديد، بعدو شجاع كل الشجاعة. لقد تحشد اثنان وثمانون الفا من المقاتلين الروس من (كيەف) ومن الدوقيات البعيدة الاخرى. انهم انحدروا مع نهر (الدنيبر) وفى حمايتهم الحشود القوية من القبجاق. لقد كانوا فرسانا اشداء من حملة التروس، وهم منذ الازمنة الغابرة فى نضال دائم مع رحل البوادى.

انسحب المغول من (الدنيبر) امام الروس انسحابا دام تسعة ايام متواليات وهم يراقبون جموع عدوهم الى ان وصلوا الى موضع سبق ان اختاروه لتلقى المعركة فيه. وكان قد تفرق المقاتلون الشماليون الى معسكرات عديدة، وهم بقوة عظيمة، الا انهم فى خصام ونزاع دائمين فيما بينهم. وكانوا مفتقرين الى قائد مثل (سووبوتاى). واخيرا شنت المعركة بين الروس والمغول فى البراح واستمرت يومين متواليين، وكانت المعركة الاولى. فقتل الامير الاكبر وشرفاؤه بسلاح الوثنيين، ومن بقى حيا منهم اسرعوا وانتكسوا راجعين من حيث اتوا نحو اعالى النهر.

لقد صفا الجو وانفسح مجال المبادءة فى العمل ثانية الى (سووبوتاى) و(جەبەنويون) فانحدرا وجالا فى القريم. واستوليا على قلعة تجارية جنوية (١٥) ولا علم لنا بما فعلاه بعد ذلك. لقد كانا يقصدان عبور (الدنيبر) للتوغل

فى اوربا، عندما ارسل لهما السعاة وأمرهما جنكيزخان، الذى كان يتعقب اخبارهما وحركاتهما، بان يرجعا الى مثابة تبعد شرقا بألفى ميل تقريبا.

مات (جه‌به‌نويون) فى طريقه ولكن المغول انعطفوا جانبا وساروا مسافة لا يستهان بها للغارة على البلغـار وابـادتهم. وكان البلغار حينذاك عند نهر الـ(فولغا).

لقد كان مسيرهم باهرا، وقد يكون هو الوحيد فى بابه كأعظم مأثرة للخيالة حتى يومنا هذا فى التاريخ البشرى. فما كان بالامكان انجاز تلك المسيرة الا لرجال لهم قابلياتهم العظمى على تحمل المشاق، ولهم اعتمادهم الرصين على قوتهم.

وهنا يرفع أحد المؤرخين الايرانيين صوته ويقول: «ألم يطرق سمعكم ان جماعة من الرجال من مكان تشرق منه الشمس، استولوا على الارض حتى ابواب الخزر. وما كان عملهم الا ابادة الشعوب وزرع الموت حيثما أموا؟. والآن لنرجع الى رئيسهم فنقول انه جاء قويا ورجع مثقلا بالاسلاب. وقد تم كل ذلك فى اقل من عامين.»

ان غارة هاتين الفرقتين الى تسعين درجة من خط الطول، انتجت لنا ثمرة غريبة فى بابها. لقد كان بين رجال الفرقتين عدا المقاتلتين، علماء الكاثاى والاويغور والمسيحيون النسطوريون. وان اقل ما علمناه عن هذه الغارة هو من التجار المسلمين الذين كان لهم بعض النصيب فى المتاجرة والذين باعوا المخطوطات الكنائسية المسيحية الى البعض من رجال العشائر المغولية.

اما (سوبوتاى) فلم يتجول فى سفراته هذه وهو مغمض العينين. ولكن الكاثائيين والاويغور دونوا مواضع الانهر التى عبروها، والبحيرات التى مونتهم بالاسماك، واماكن المملحات ومناجم الفضة. انهم اسسوا مراكز البريد على طوار الطرق. وعينوا الـ(داروغا)ت ـ وهم الموظفون الاداريون فى المناطق المحتلة. لقد رافق المغول المحاربين فى فتوحاتهم الحكام الاداريين كما يخبرنا أحد القساوسة الارمن، وقد أسروه واحتفظوا به ليقرأ الرسائل ويكتبها لهم،

وهو يخبرنا بان المغول سجلوا نفوس الذكور الذين تزيد اعمارهم على العشر سنوات في البلاد الواقعة في ادانى القفقاس.

واكتشف (سوبوتاى) مناطق الرعى الواسعة فى جنوب روسيا، منطقة التربة السوداء. وقد بقى يتذكر هذه البوادى. ثم عاد بعد اعوام من الجانب الثانى من العالم ليقتحم (موسكو). وقد استأنف مسيره من المثابة التى استدعاه اليها الخان، وعبر (الدنيبر) للغارة على اوروبا الشرقية.

لقد اتصل تجار البندقية وجنوه مع المغول. وبعد جيل اخر شرع بولس الفنيسى (البندقى) برحلته الى بلاد الخان الكبير.

الفصل السابع عشر

جنكيز خان يذهب للصيد

في الوقت الذي كان فيه الاورخانان يشنان الغارات في غرب بحر (الخزر)، كان نجلا الخان يندفعان نحو البحر الداخلي الثاني، المعروف في يومنا هذا ببحر (آرال) (*)، لقد ارسلا وراء اقتطاف الاخبار عن الشاه، وليقطعا عليه خط رجعته. وبعد ان علما بان الشاه قد التجأ نهائيا الى قبره، سارا على طوار نهر جيحون (آمو) العريض قاطعين سهوله الغربية الى مدينة الخوارزميين

وعند هذه المدينة وقف المغول زمنا طويلا وجابهوا حصارا عنيفا، افتقروا فيه الى الاحجار الكبيرة لمقاذيفهم فاضطروا الى قص جذوع الاشجار الضخمة الى قرم ونقعوها في المياه الى ان ثقلت ثقلا كافيا يلائم اغراض القذف. ويقول لنا المؤرخون، ان المغول استعملوا اللهب النفطية في ملحمة القتال التي استمرت اسبوعا واحدا وهو سلاح جديد يحتمل انهم اقتبسوه من المسلمين الذين استفادوا الاستفادة الكلية منه في حروبهم مع الصليبيين الاوربيين. وبالتالي سقطت (اوورغنج) فاسرع المغول راجعين مع اسراهم واسلابهم الى مقر الخان. غير ان جلال الدين، الولد البطل للوالد الجبان، نجا وفر ليقود قوات جديدة عليهم.

وفي هذه الاونة، سحب جنكيز خان محاربيه من البلاد المنخفضة خلال موسم الصيف، اذ ان الحر الشديد المتأجج اضجر الرجال المتعودين على مناخ (كوبى) المرتفع. انه سحبهم وقادهم الى السلاسل الباردة فيما وراء جيحون.

ولاشغال جنوده، في وقت تقضي اسراب الخيل فيه الموسم في الرعى، ولغاية بعيدة المرمى والمغزى من حيث الضبط، اصدر اوامره ليقضي الجيش ردحا من الزمن مستجيبا لديه؛ أجل لامراره موسما في الصيد.

(*) وقد تعنوه الخوارزميون في عهدهم ببحر (خوارزم) ـ المترجم

ما كان صيد المغول اقل خطورة عن حرب منظمة ضد القنيص، لا ضد البشر. لقد اشترك بهذا الصيد الجيش بكامله. اما انظمته فقد وضعها الخان بنفسه. وهذا يعني انها قواعد صلبة لا تتغير، او بالاحرى لا تتلوى.

ولما كان (جوشي) آمر الصيد غائبا في انجاز واجب ما، فقد اسرع مرؤوسوه حضرا ليستطلعوا عدة مئات من الاميال من التلال، وينصبوا فيها الانصاب والاشارات. انهم ركزوا الاعلام في مختلف الاماكن للدلالة الى مواضع الشروع لمختلف الكتائب، وعينوا او اشروا فيما وراء خطوط الافق، ا (غوورتاي) اي المحاشر ـ مواضع التجمع ـ للصيد.

وانك لتشاهد الان، سرايا الخيالة وجنودها على اتم تنظيم، واسمى جذل، تنفتح يمينا ويسارا وتعسكر في البراح تبعا للاوامر الصادرة اليها من ادلاء الصيد، انتظارا لقدوم الخان ولاصوات الابواق ورنات الصنوج التي تشير عليهم بالشروع والاندفاع في الصيد. هكذا نظموا انفسهم على شكل هلال قليل التقعر، في ساحة من الارض سعتها ثمانون ميلا او ما يقارب الثمانين.

ظهر موكب الخان وبحاشيته اكبر ضباطه والامراء واحفاده الاحداث. وكلهم راكبون في نسق منفرد منضم، وقد يكون النسق مزدوجا احيانا، وهم يحملون الاسلحة والتجهيزات التي يستعملونها عادة ازاء عدو بشري، عدا ما كان يحملونه من الترس الخفيفة.

زخرت الجياد مندفعة. وذهب الضباط الى قياداتهم، وبدأ تجفيل القنص. لقد كان محضورا على المقاتلين ان يستغلوا اسلحتهم في قتل الانعام، ومن المشين المزري ان يتغافلوا عن ذوات الاربع فيدعوها تتسلل من بين صفوف الراكبين. وهكذا توغلوا في الاحراش، واندفعوا في الخوانق، وتسلقوا التلال، وهم يصرخون ويضجون اذا ما شاهدوا نمرا او ذئبا ينساب بين الانجم او ينفر من بين الادغال.

وفي الليل تزداد المصاعب. فبعد الشهر الاول من الشروع بالصيد تجمع عدد كبير من القنيص بين ذراعي الهلال البشري، وقد عسكر المحاربون

واوقدوا النيران، واقاموا الحراس والخفراء حولهم، واذاعوا بينهم ايضا «اسرار الليل» المعتادة. ودأب الضباط بدوراتهم الليلية. وليس من الامور الهينة الاحتفاظ بنطاق الرمايا، وذوات الاربع فى حركة لا هوادة فيها امام رجال المرابات، وعيون الضوارى تتوهج من بين ظبات الارض وعواء الذئاب وزئير الفهود يخل فى سكون الليل، ويصك الاسماع.

لقد تضاعفت الصعوبات بعد شهر اخر، عندما اخذ القوس بالانكماش وبدأت جموع الضوارى تشعر بانها فى شرك المطاردة، وليس فى عنف الصيد من تراخ او تكاسل. فان دخل ثعلب الى جحره انهارت المعاول لاخراجه، واذا التجأ دب الى مكمن فى الصخور اقتضى على احد الرجال ان يولج المكمن من ورائه، دون ان يلحق الاذى بالدب. ففى هذه المواقف، تكثر الفرص للمقاتلين الاحداث ان يبرزوا كفاءتهم وجرأتهم، وعلى الاخص اذا رجع حلوفا منيبا ـ او قطيعا من الخنازير ـ فهاجم خط الفرسان.

وقد حدث ان حالت دورة عريضة من نهر دون اندفاع فرسان قاطع من القوس، فتوقفوا عن المطاردة وارسلوا السعاة مسرعين الى القطاعات الاخرى من القوس لتحجم عن التقدم حتى يمكن لهم عبور النهر. ولكن الضوارى المطاردة عبرت النهر فى اكثر اقسام القوس.

اسرع المحاربون الى النهر وانزلقوا من السروج، وتمسكوا بالمعارف او الذيول. وقد شد البعض منهم افواه جعب تجهيزاتهم الجلد شدا محكما فاتخذوا منها اجربة للطوف عليها، وعندما وصلوا الى الشاطىء الاخر من النهر امتطوا صهوات جيادهم واستأنفوا المطاردة والصيد.

وكنت ترى الخان يظهر تارة هنا، وتارة هناك، وهو يراقب رجاله وطريقة قيادة ضباطه لفرسانه وادارتهم. ولم يبد ملحوظة خلال الصيد، الا انه حفظ التفاصيل لديه.

وعند الاقتراب من الـ ـ غووزتاى ـ محاشر الصيد اخذ ذراعا القوس بالاقتراب والانطباق بتوجيه من الصيادة، واخذت الضوارى تشعر بالخناق، وبدأت الغزلان والايائل تثب باطراف مرتعشة والنمور تتراكض حائرة

طائشة، وهى تزأر والرؤوس منها مطأطأة. والى ما وراء محشر الصيد على مدى لا يصل النظر اليه اتصل ذراعا القوس، واصبح طوقا احاط بالقنيص. وعندئذ اخذت اصوات الصنوج النحاسية ترتفع، ورعود الصرخات الصاخبة تتعالى. وانتظم المقاتلون فى صفوف ثنائية وثلاثية. وتقدم الخان نحو جموع الرجال، والضوارى الهائجة واشار الى رجاله، فانشقت صفوف المحاربين له وولج الساحة.

والعادات القديمة تقضى ان يكون الخان، اول من يجابه الضوارى النزقة المأزوقة. شهر الخان بيد واحدة سيفا مسلولا، وقبض باليد الثانية على قوسه. واستعمال السلاح فى هذه المرحلة من الصيد مباح. وينبئنا المؤرخون بان الخان اختار اشرس الوحوش الضارية لاغتيالها، فاخذ يصوب بسهامه على نمر، او يقود جواده فيغير على ذئاب.

وبعد ان قتل عددا من الضوارى خرج من الدائرة وصعد الى تل مشرف على الـ (غوورتاى) فجلس تحت صيوان، وهو يشاهد حملات الامراء والضباط الذين حق لهم ولوج طوق الصيد من بعده. لقد كان المنظر منظر ملعب رياضى مغولى، وميدان صراع قبلى. وكما كان الامر فى ميدان صراع الرومان، لم يخرج من الملعب ممن ولجه الا القليل، وهو محمول ينازع سكرات الموت، او قد فقد الحياة.

وعندما اعطيت الاشارة للحملة العامة، اندفع مقاتلو الجيش وتقدموا كل يلاقى ما يجابه فى اتجاهه. وقد يمر يوم كامل فى قتل الحيوانات الى ان يتقدم نزولا عند العادات، الامراء الاحفاد والامراء الاطفال من القبائل الى الخان يستعطفونه ليعتق رقاب من لم يقتل من الحيوانات . فينزل الخان عند هذه الرغبة، وينقطع الصيادون من الصيد، فينقلبون الى جمع الاشلاء والجثث.

ان هذا الصيد درب المقاتلين. وقد طبق المغول فى الحروب، اسلوب اطباق الفرسان حول اعدائهم من البشر.

* * *

لم يستمر الصيد، فى هذه السنة، وقد اجرى فى بلاد معادية، اكثر من اربعة اشهر. والخان كان يرغب فى التهيؤ لمعركة الخريف، وفى ملاقاة

(جوشى) و(جاتاغاى) وهما راجعان من البحر الداخلى يحملان اخبار موت الشاه.

لقد اقتحم المغول حتى الان بلاد الاسلام دون ان يعيقهم عائق. انهم عبروا الانهر وفتحوا المدن. وقد تنقلوا فى فتوحاتهم بسرعة تضاهى تنقل السائح العصرى فى يومنا هذا وهو يسوح مع خدمه فى قافلة تسير سيرا اعتياديا من موقع الى اخر. اما محمد الشاه المحارب وقد كان غيورا فى بداية الامر، وجبانا فى اخره فضحى بشعبه ساعيا وراء النجاة بنفسه، فلم يكن من نصيبه الا العار. ولم ينته الا الى قبر مستجدى. .

والذى فعله محمد شاه هو ما فعله امبراطور (كاثاى)، اذ القى بجيشه فى المدن تخلصا من حيالة المغول التى بقيت مختفية حتى ساعة المعركة؛ ثم قامت بمناورتها بهدوء تام طوعا لاشارات لوحت لها باعلام يكررها الضابط بحركات ذراعه الى جنود السرية. انهم اتبعوا هذا الاصول نهارا فى معامع الوغى عندما لا يمكن سماع صوت الانسان، او عندما يمكن ان تتلابس على المحاربين اصوات الصنوج والطبول فيعتبرونها لاعدائهم. اما فى الليل فكانوا يلوحون بمثل هذه الاشارات برفع المصابيح الملونة وخفضها عند (طوغ) راية القائد.

فبعد ان اكتسح اولا جنكيزخان الخط الشمالى من سيحون (السير) جمع ارتاله على (بخارى) و(سمرقند)، اذ اعتقد انهما مدينتا الامبراطورية الرئيسيتان. وقد حطم ايضا هذا الخط الثانى من الدفاع دون اتعاب خطيرة، ثم عاد وجمع جيشه على ما يمكن لنا تسميته بالخط الثالث، وهو المرتفعات الحصبة لايران الشمالية وافغانستان.

لقد كان النزاع حتى الان، بين المغول والاتراك، او الكفرة والمسلمين، نزاعا اوقع المصائب والكوارث فى المسلمين. ولقد بان للاتراك الوجلين ان المغول هم غضب الله الاكبر، او انهم فى الحقيقة، العقاب الذى انزله الله بهم لذنوبهم.

لقد تألم جنكيزخان بعض التألم لتشجيعه هذا الرأى والمعتقد هذا وقد

اعتنى ايضا فى تخلية جناحيه من اعدائه فى الشرق. انه تجشم السفر شخصيا وتوغل فى البطحاء المحيطة بينابيع (جيحون) وارسل الفرق الاخرى للاستيلاء على المدن فى الغرب والتى مربها كل من (جه‌به‌نويون) و (سووبوتاى)، وارسلا التقارير عنها الى الخان. وهو بعد ان اكمل هذه المهام نصب نفسه سيدا على (بلخ)، وعين موسم صيف للقيام فيه بحملة الصيد العظمى فى جوارها.

وهنا احتل الطرق التجارية فى وسط الامم الاسلامية. وكان منهمكا خلال هذه الحوادث فى جمع المعلومات والاخبار. اذ ما فتىء يعلم ان هنالك قوات اخرى لم تمس بعد، يجب القضاء عليها، وان هنالك قوات اعظم فيما وراء الافق. وكما فعل الصينيون فيما مضى كانت الشعوب الاسلامية تتهيأ لمنازلته. انهم فقدوا شاههم وفقدوا نجلين من انجاله فى المعارك الناشبة مع المغول. ولكنهم اخذوا يتجمعون تحت امرة قاداتهم من ابناء جلدتهم، امراء الفرس والسادة سليلى النبى الغازى.

ان جنكيزخان كان عالما كل العلم بموقفه هذا، كما كان يعلم ان اختبار القوة لا يزال منوطا بالايام المقبلة، وان القوة التى تحشدت لمنازلته، قد لا تقل عن مليون رجل من الفرسان المحنكين والمسلحين التسلح الكافى، الا انهم كانوا فى ذلك الحين مفتقرين الى قائد يتزعمهم وكانوا متشتتين فى اثنتى عشرة مملكة تحيط به.

وكان جيش جنكيز خان فى اوائل سنته الثانية، لا يزيد على اثنتى عشرة فرقة بعدد يزيد قليلا على المائة الف مقاتل. وقد طلب من الخان رؤساء (اى‌دى‌قووت) الاويغور وملك (آماليق) المسيحى السماح لهم فى العودة الى (تيان‌شان) مع قواتهم، فسمح لهم بذلك. وكان (جه‌به‌نويون) و(سووبوتاى) وهما احنك قادته، فى الغرب على رأس فرقتين. وقد وقع (ته‌ليك‌نويون) وهو احد القادة ـ من بين اراخنته ـ الذين يمكن الاعتماد عليهم، قتيلا فى الغارة التى شنها على (نيشابور). اما (موهوولى) كما هو المعلوم فكان فى (كاثاى). وهكذا نرى ان زمالة العمادة ـ النويونية ـ قد ضعفت لديه فشعر بالحاجة الى مشورة (سووبوتاى).

ارسل طالبا حضور قائده المحبوب بالرغم من بعده عنه فى (الخزر)، فلبى (سوويوتاى) دعوة الخان، وجاء الى (بلخ)، وبقى فى مشورة سيده بضعة ايام، ثم قفل راجعا حضرا الى مقره على مسافة الف ميل.

لقد تغيرت الآن ميول الخان تغيرا بيناء وانا لا نراه الآن يفكر فى الصيد. انه انب نجله الاكبر (جوشى) تأنيبا عنيفا للنزاع الذى سبب التأخر فى الاستيلاء على (اوورغنج)، وقد يكون سبب تأنيبه له لفسحه مجال فرصة الانهزام امام جلال الدين. وهكذا جرد (جوشى) المتهوس العنيد من الجيش، وركب هو مع قطعاته الخاصة وسار شمالا الى البوادى فيما وراء بحر (آرال).

وبعد ذلك، أمر جنكيزخان جيشه بالتقدم، لا للاحاطة باعدائه وسلبهم دون اكتراث، بل لامحاء كل قوة بشرية قائمة حوله.

الفصل الثامن عشر

عرش (تولى) الذهبي

جاء في تاريخ احد الامراء الخوارزميين اذ يقول: «انني كنت اعيش يوما في قلعتي، على سفح جبل صخري مرتفع. وكانت من اقوى قلاع خوارزم. واذا اردنا ان نصدق العنعنات فأقول «انهاكانت ملك اجدادي منذ ان توغل الاسلام في هذه البلاد. ولما كانت القلعة واقعة بالقرب من مركز المنطقة، فانها اصبحت ملجأ للاسرى الهاربين وللسكان المنهزمين من الاسر او الموت على ايدي التاتار».

«وبعد مدة من الزمن ظهر التاتار امام القلعة، وقد ايقنوا بانهم غير قادرين على الاستيلاء عليها، فطلبوا تعويضا لانسحابهم عشرة آلاف رداء قطن، وكمية اخرى من اشياء اخرى، بالرغم من تخمتهم بما سلبوه من (نسا) (*)

«نزلت عند رغبتهم، ولكن عندما جاء دور نقل هذه الاموال اليهم، لم نجد احدا يرغب في ذلك. اذ الكل يعلم ان الخان اعتاد ان يقتل كل من يعثر عليه. واخيرا تطوع شيخان طاعنان في السن، واتيا باولادهما الى لارعاهم بعد قتلهما اذا قتلا. وقد قتلهما التاتار فعلا قبل ان يرجعا من معسكرهم.

«وبعد ردح من الزمن قليل، استولى هؤلاء القساة على جميع انحاء (خوراسان). فهم ان أموا منطقة ساقوا امامهم القرويين، وجاءوا بالاسرى معهم الى المدينة التي يقصدون فتحها فيستخدمونهم في اشغال الحصار واعماله. لقد عم البلاد الرعب والدمار.

«لقد امسى الرجل الاسير اكثر اطمئنانا على حياته من الذي ينتظر نصيبه من الحياة في داره، اذ لا يعلم بما سيداهمه. فالرؤساء والوجوه كانوا مرغمين على الذهاب مع اتباعهم وعبيدهم للاشتراك بالاعمال الحربية ومن لا يطيع ذلك فالسيوف تقطعه. ولا نجاة من هذا لاحد».

(*) مدينة صغيرة بالقرب من (عشق آباد) خربها المغول وطمرت تحت الرمال، وكانت محصنة قويا. من كتاب جنكيز خان لـ(ف. يان) ـ المترجم.

لقد كان (تولى) سيد الحرب، اصغر انجال الخان، الذى فتح اصقاع ايران الحصبة هذا الفتح. وقد امره والده ان يبحث عن جلال الدين. ولكن الامير الخوارزمى انسل ونجا. فسار الجيش المغولى نحو (مرو) جوهرة الرمال ومدينة انس الشاهات وطربهم. و(مرو) تقع على (مرغآب). وهى تضم فى قماطير مكتباتها الالوف من مجلدات الكتب المخطوطة.

عثر المغول على رتل متجول من التركمن فى القرب من المدينة فبعثروه شر مبعثر. واحاط (تولى) وضباطه بالمدينة واخذ يدرس دفاعاتها. ثم اقتربت صفوف المغول منها وتم الحصار، بعد ان سلبوا اغنام التوركمن ومواشيهم فارسلوها لترعى.

اخذ الغضب من (تولى) مأخذه عندما خسر الفا من اقدر جنوده، وكانوا من جنود الحرس الامبراطورى؛ حرس الخان الخاص. فدأب على شن الغارة تلو الاخرى على سور (مرو)، وصار يبنى سدا من التراب ازاء متاريس السور ساترا تعرضه برشاش السهام. استمر ذلك اثنين وعشرين يوما، وفى فترة اعقبت تلك الغارات، اوفد التركمن رجلا من رجال الدين منهم (*) الى المغول، فاستقبل استقبالا لائقا واعيد حيا الى فريقه.

لقد ظهر ان هذا الرجل الدينى، ما جاء المغول عن المدينة. بل انه جاءهم عن (مريك)، (**) الحاكم نفسه. وبعد ان اطمأن الحاكم على حياته ذهب الى خيام المغول، حاملا معه الهدايا الثمينة من اوانى الفضة والاردية المجوهرة.

وقد خلع (تولى) المخادع على الحاكم ودعاه الى خيمته لتناول طعام العشاء معه، فجعل الايرانى بذلك ان يدرك بان حياته مصونة لا محالة. وهناك اقترح عليه تولى قائلا : «ادع اصدقاءك ورفاقك الذين تصطفيهم، فاننى سأمنحهم المناصب والالقاب واكرمهم.»

ارسل (مريك) احد خدمه ليأتى بالمقربين اليه. فجلسوا بجانب الحاكم حول السماط. وعندئذ طلب (تولى) ان يعطوه قائمة بستمائة غنى من اغنياء

(*) الامام جمال الدين (**) المقصود به «مجير الملك» ـ عن الترجمة الفارسية للاستاذ آقاى رشيد ياسمى ـ المترجم.

(مرو). فاطاع الحاكم ومقربوه الامر فسطروا اسماء اغنى الملاكين والتجار. وقد اعقب ذلك، ان حنق المغول رفاق الحاكم، على مرأى منه وهو يرتعد خوفا. ثم ارسل (تولى) بقائمة الاسماء المكتوبة بخط الحاكم مع احد ضباطه الى مدخل مدينة (مرو) طالبا الاشخاص المذكورين فيها.

جاء هؤلاء بدورهم واقام المغول الحرس عليهم، ثم سيطر المغول على المدخل واخذت كوكبات خيالتهم تتدفق الى داخل المدينة وتملأ شوارعها. وقد امروا السكان ان يخرجوا الى السهل ومعهم عوائلهم وما يتمكنون من حمله من المتاع. وقد استمر هذا الاخلاء اربعة ايام متوالية.

جلس (تولى) فى وسط جموع المسبيين وهو ينظر اليهم من كرسى على دكة مطعمة بالذهب. وجمع ضباطه قادة الجيش الايرانى وقادوهم اليه. فأمر بقطع رؤوسهم فقطعت على مشهد من الاخرين. ولا حيلة لهم على ما امسوا به.

ثم فرقوا الرجال والنساء والاولاد الى ثلاث كتل، واجبروا الرجال ان ينبطحوا وايديهم مشبكة وراء ظهورهم؛ وقسموا هذه الحشود الشقية بين محاربى المغول فبدأوا يخنقونهم او يضربونهم بالسياط والمقارع حتى الموت. ولم يستثنوا منهم الا اربعمائة رجل وهم من ارباب الصنائع والمهن الذين يحتاجهم الجيش، وبعض الاولاد لاستعبادهم. وما كان نصيب الستمائة غنى بأحسن من غيرهم الا قليلا. اذ عذبوهم الى ان قادوا المغول الى المخابىء التى اخفوا فيها اثمن ما يملكون.

وبعد ذلك سلب المغول المساكن الخاوية، وهدموا الجدران الى ان ساووها مع الارض. ثم انسحب (تولى) وولى. ويظهر ان من بقى حيا فى المدينة كان خمسة آلاف من المسلمين، اختفوا فى السراديب والمخابىء. ولكن لم يعش هؤلاء طويلا، اذ رجع قسم من الجيش الى المدينة، فتصيدوا الاحياء وقتلوهم عن بكرة ابيهم. ولم يتركوا حيا من بنى البشر فيها.

* * *

وعلى هذه الوتيرة احتل المغول على المدينة بعد الاخرى واغاروا عليها. وفي موقعة ما انقذ بعض الناس انفسهم من الموت بالانبطاح بين اشلاء من تم قتله من ابناء جلدتهم. ولكن المغول علموا بذلك بعد حين، وكان تدبيرهم ازاء ذلك، صدور الامر بقطع الرؤوس في المستقبل عند القتل. وفي خرائب مدينة اخرى، تمكن البعض من الاشلاء الايرانية ان تنجوا من الذبح، فارسل المغول ثلة من الجيش الى الوراء ومعها الاوامر للقضاء على من كان حيا. فرجعت هذه الثلة وعسكرت واخذت تتعقب الآثار وتتصيد هؤلاء التعساء دون رحمة او تأنيب ضمير، وكأنهم كانوا يتصيدون البهائم والضواري.

وكان المظهر في الحقيقة، يضاهي مظهر تصيد الحيوانات المضاهاة كلها. فانهم قد برعوا ومهروا، بل وتفننوا بمختلف فنون القضاء على بني الانسان. ففي مكان من الاماكن اجبر المغول مؤذنا اسيرا ان يؤذن من منارة داعيا الناس الى الصلاة، فلبى المسلمون الذين كانوا قد اختبأوا في مخابئهم وخرجوا للصلاة اعتقادا منهم بان الغزاة القساة قد رحلوا. ولكنهم وقعوا في الشرك ولقوا حتفهم.

اما اذا رحل المغول من مكان ما، فانهم يهشمون ويحرقون ما تبقى من الزروع لكي يموت جوعا من نجا من سيوفهم. وفي (اوورغنج) حيث قاومت دفاعات المدينة امامهم وكبدتهم الخسائر، التجأوا الى تحمل مشاق رفع مستوى النهر الى فوق مستوى القلعة، وتبديل مجراه ليعلوا على انقاض وركام البيوت والجدران. ان تغيير مجرى نهر جيحون (آمو) حير الجغرافيين زمنا طويلا(*)

ان التطرق في يومنا هذا الى مثل هذه التفاصيل من التقتيل والتدمير والابادة لامر فظيع مريع. لقد كانت هذه تفاصيل حرب، استعرت نيرانها استعارا صعد الى اوجه ؛ الى ذلك الاوج الذي وصلت اليه تقريبا الحرب العالمية المنصرمة. لقد كانت حربا تستهدف القضاء على بني الانسان لا لغاية،

(*) جاء في الصفحة (١٩٥) من كتاب جنكيز خان لـ«ف. يان» ان المغول خربوا السد الناظم للمياه التي تروى بلاد خوارزم، وبذلك تحولت المياه وطغت على المدينة فاغرقتها. ـ المترجم.

او غرض، انما حسبة لله !!، كما يقال. وهذا الفتك والذبح مما جعلا قلب البلاد الاسلامية قاعا صفصفا. والناجون من هذه المجازر صاروا يقضون الحياة بنفوس متضعضعة، خاوية جعلتهم ان لا يهتموا الا بالكد وراء القوت والمخابىء. وقد اخذهم الفزع حتى من ابتعادهم من الركام المشوشبة بالاعشاب السامة، الى ان تؤمها الذئاب لتنهش منهم الاشلاء الملقاة عليها او لجرها قطائس. حرم المغول حتى هذه الخرائب من المدن المقوضة على بنى الانسان، وقد امست ندبة فى وجه ارض كان لها ازدهارها وخصوبتها. وقد قلب المغول اكثر من مرة، عالى الارض الى اسفلها، فحرثت وبذرت الحبوب فيها.

أجل، ان العشائر الرحل الذين يهتمون بحياة بنى الانسان اقل من اهتمامهم بالارض التى تنبت لهم الحبوب، او تقيت لهم البهائم، كانوا يستأصلون المدن من أسسها. وقد خنق جنكيزخان ولود كل حركة عصيان، انه قمع كل نهضة، او كل ثورة قبل اندلاع لهبها. فهو لا يرحم ولا يسمح لغيره ان يرحم.

لقد قال لاراختته ـ امراء جيوشه ـ: «حذارا، من ان ترأفوا باعدائى دون امر صريح منى. فالعنف وحده يخضعهم ويذعنهم، اذ ان العدو المقهور لا يخضع ابدا وهو يبغض سيده الحديث على الدوام».

ولكن جنكيزخان لم يلتجىء الى هذه الوسائل فى (كوبى) ولم يتمسك بقسوته العنيفة هذه فى (كاثاى). اما هنا فى العالم الاسلامى فأنه ظهر بمظهر الجلاد الممتهن. وقد انب (تولى) تأنيبا عنيفا لعفوه عن سكان (هرات)، الا عشرة آلاف من مشايعى جلال الدين. وفى الواقع ان (هرات) شقت عصا الطاعة، وقتلت حاكمها المغولى.

ونهضت المدن الاخرى ثائرة عند زيارة السلطان جلال الدين الفتى لها، وتحريضه الاهلين على الثورة. ولكن ظهرت سرايا الخان توا عند مداخل المدن. وما قل نصيب (هرات) قساوة عما لاقته (مرو). لقد اخمدت جمرات المقاومة اخمادا مخيفا، اذ ان الخطر الحقيقى قد اظهر نفسه فى تلك الآوان، وهو الجهاد. ولقد اخذ المسلمون الثقاة ينعتون المغولى باللعين، ولكن سرا وهمسا. فقد

انطفأت الان نار الجنون. اجل، لقد كان للمسلمين زعيم، الا ان قلب عالمهم قد اصبح فى خراب ويباب. وان جلال الدين الرجل الاوحد الذى يتمكن من لم شعثهم، وجمع شملهم والذى ولج الميدان الان ازاء المغول، قد ردعته فيالق رصدهم عند الحدود فسلبوا منه مجال الوقت والفرص لجمع جيشا يناوءهم به.

وعندما جاء الصيف الثانى بقيظه، قاد الخان اكبر قسم من جيشه الى اعالى (هندوكووش) المشجرة، فوق الوديان المتأججة حرا. وفى هذه المرتفعات اقام لجيشه المصايف، ولكنه ساق السبايا والاسرى، والاشراف والعبيد، والحكام والشحاذين، على حد سواء الى حرث الارض وبذر الحبوب. فلا صيد ولا قنص فى هذه المرة. ولكن الامراض نالت من الجيش قسطها الوافر.

وفى تلك الاعالى مكثوا مدة شهر او ما يقارب الشهر، فى سرادقات حرير مغتنمة من البلاطات والقصور المغلوبة المقهورة. وغدى انجال الاتابيكات الاتراك والامراء الايرانيون، من حملة الكؤوس الى المغول. والنساء، نساء المسلمين الغانيات، يتجولن فى المعسكرات غير متحجبات؛ يشخص اليهن الكادحون فى المزارع من الاهل والاتباع بنفوس حائرة، وعيون نافرة وما عليهم الا اسبال تستر منهم العورات، وهم ان سمح لهم المغول المحاربون بالاكل تنهاشوا الطعام مع الكلاب.

وانحدر التركمن الهمج، قطاع الطرق سلاب القوافل، من مرتفعاتهم للتاخى مع الفاتحين. فصاروا يحملقون فى اكوام الفضة والذهب، وفى الاردية المزركشة الوفيرة الملقاة تحت العرائش لنقلها الى (كوبى). كما وأم المكان الاطباء ـ والطب امر حديث لتلك العشائر الراحلة، لمعالجة المرضى ـ والمثقفون للنقاش مع الكاثائيين على مسمع من شقاة (كوبى) وهم بعيدون كل البعد عما يسمعون ولا يفهمون الا بعض الفهم مما يدور، وان فهموا فلا يكترثون الا قليلا لما يفهمون.

وعاتق جنكيزخان كان يئن تحت اعباء سيول الواجبات الادارية، وهى لا تنضب، ولا تنقطع. فالسعاة يصلون اليه من امراء جيشه فى (كاثاى) ومن

(سووبوتاى) من البوادى الروسية. ففى الوقت الذى كان يوجه الحركات العسكرية فى هاتين الجبهتين، كان عليه ان يتصل اتصالا وثيقا بمجلس الخانات فى (كوبى).

ولم يقتنع جنكيزخان بما كان يصله من الرسائل والانباء. فأمر مستشاريه الصينيين ان يحضروا لديه فى (هندوكووش). وبالرغم من احتمال استنكارهم هذه الرحلة القاسية فوق النياسم الهاوية وفى الصحارى القاحلة حضروا ولم يتضجر احد منهم، ولم يتأفف. ولربط الشرق بالغرب، ولفتح الطرق الحديثة بينهما اخترع الخان الـ(يام) او مراكز بريد المغول، وهو بريد الخيل السريع فى آسيا، وهى فى العصر الثالث عشر من العصور.

الفصل التاسع عشر

مشيدو الطرق

اعتاد رجال (كوبى) القبليين منذ اجيال، على ايصال الاخبار من قرية خيام الى قرية خيام اخرى بالسعاة الخيالة. فاذا جاء القرية خيال اغائر داعيا للحرب، او بقليل من الانباء او الشايعات امتطى احد رجال القرية جواده واسرع الى الاصدقاء البعيدين مذيعا البشائر او مخبرا بما علمه. واعتاد هؤلاء السعاة ان يطووا خمسين او ستين ميلا فى اليوم الواحد.

وبعد ان وسع جنكيزخان فتوحاته، تحتم عليه ان يحسن الـ(يام) نظام البريد. وكان البريد فى بادىء الامر من الامور الملقاة على عاتق الجيش، كما كان الجيش مسؤولا عن جميع اسفار الخان الادارية. ولذلك اسست المعسكرات الدائمة فى فواصل معينة على طرق المسير، ووضعت فى كل معسكر منها بعض الجياد، وبعض الفتيان لمداراة الخيل، وبعض المحاربين لردع قطاع الطرق والسراق. واذا مر الجيش بهذه المراكز واجتازها فلا تبقى حاجة الى الاحتفاظ بحامية قوية فيها.

ويحتمل ان هذه المعسكرات، وهى تتألف عادة فى الشتاء من بضع خيام ومذخر للتبن ولاكياس الشعير، كانت تبعد بعضها عن بعض بمسافة مائة ميل، وهى على طوار طرق القوافل. فعلى طرق المواصلات هذه سار حاملوا الخزائن جيئة وذهابا وهم ينقلون الى (قاراقوروم) الجواهر والمصاغ الذهب، واجود الحلى المصنوعة من احجار اليشب، وطلاء الميناء، ويواقيت (بدخشان) القيمة.

فعلى هـذه الطرق ارسلوا ما التقطتـه الجيوش الى موطن المغول فى (كوبى)، واننا لنتصور بان مضارب الرحل فى (كوبى) كانت تقوم وتقعد حائرة مستغربة لما كان يصلها من البلاد المجهولة لديهم فى كل شهر من الاشهر، من احمال التحف والطرف، ومن اجناس مختلفة من بنى الانسان.

وقد يزداد تعجبهم واستغرابهم، عندما يصل اليهم المحاربون الذين قاتلوا فى (خوراسان) وفى سواحل البحار الداخلية فيجلسون فى خيامهم عند النيران الملتهبة فيقصون عليهم قصص جيوشهم المنتصرة، والظفار اللامعة التى لا يستوعبها العقل.

ولربما اصبحت جميع الامور ممكنة، بزعم هؤلاء الرحل الذين بقوا وترعرعوا فى موطنهم واعتادوا على وصول الثروات والخزائن لهم على ظهور الجمال المغتنمة حتى لمداخل خيامهم.

فما الذى كان يدور فى خلد النسوة عندما غمرهن الترف الذى لم يحلمن به سابقا ؟ وكيف فسر الشيوخ غزوات الاراخنة على بلاد هى خارج العالم الذى يعرفونه ؟ وما الذى حل بالثروات والمال ؟ وكيف استعمل المغوليات حجابات الايرانيات المحبوكة باللالىء ؟.

وكيف غبط الرعاة والاحداث هؤلاء البواسل العائدين الى موطنهم وهم يجرون من ورائهم الارتال من الصافنات العربية السبوق، او يتفاخرون بما يحملونه من الاسلحة الفضة المغتنمة من امير ايرانى، او اتابك تركى؟. هذه امور نجهلها. وان المغول لم يتركوا لنا اثرا نستند عليه لمعرفتها. الا اننا نعرف أنهم تلقوا انتصارات الخان من الامور المقدرة. اما كان هو (بوغدو) السماء، رسول الآلهة، ومقنن القوانين ؟ فلم اذن لا يستولى على ما يحبه من الارض.

والظاهر لنا ان جنكيزخان لم يسند انتصاراته الى اى قدرة سماوية. لقد قال وكرر قوله مرارا. «ان هنالك شمس واحدة فى السماء، وهنالك قوة واحدة فى الملكوت. ويجب ألا يكون الا خاقانا واحدا فى الارض...»

لقد تقبل احترام بوذيه له دون ملحوظة، او تعليق. كما انه ايقن بصفته «غضب الله» تلك الصفة التى ألصقها به المسلمون والتى كثيرا ما انذرهم بها عندما كان يرى امورا يرغب فى الحصول عليها، غاضبا تلك الغضبة.

انه استمع الى تنبوآت المنجمين واستفزازاتهم ولكنه وضع خططه كما اراد. وانه ما كان جبريا ممن يعتقدون بالقضاء والقدر كنابليون. كما انه

لم يدع كما ادعى الاسكندر بالخصال والسجايا الآلهية او الربوبية، ولكنه نشد الحكم على نصف العالم فوجه عزمه الذى لا ينثنى وصبره الجميل الى ذلك، كما كان يوجههما فى صباه وهو يعقب آثار جواد شارد.

انه نظر الى الالقاب والنعوت نظرة الاستغلالى. حدث ان أمر فى يوم من الايام بكتابة رسالة الى امير مسلم عند حدود مملكته. فسطرها احد الكتاب الايرانيين فدبج فيها القاب المدح ونعوت الثناء التى اعتاد الايرانيون عليها، واحبوها. وعندما اطلع جنكيزخان عليها صرخ غاضبا وامر بتمزيقها وقال الى الكاتب «ويلك انك دونت الخيال فيها. ان الامير سيظن انى اخافه» ثم املى على كاتب آخر من كتابه رسالة موجزة جازمة، وهذا ما اعتاد عليه، ووقعها بكلمة «الخاقان». (١٦)

* * *

وربط جنكيزخان جميع طرق القوافل القديمة بعضها ببعض، لتأسيس المواصلات بين مختلف جيوشه.

فأن جاء الضباط مراكز البريد او منازله وقفوا قليلا لأراءة اقراص بازاتهم(١٧)،وانتظارا لوصول جياد شعث لهم من المراتع. كما يصل هذه المراكز الكاتائيون الملتحون وهم ملتفون بمعاطفهم المزركشة والمزوقة تزويقا ثقيلا راكبين عجلاتهم الوحيدة المحور، المسدلة الستائر فينزلون عندها ويخف خدمهم فيكسرون قليلا من قطع الشاى المضغوط ويغلونه على النار ويهيؤنه لساداتهم. ويقف فى هذه المراكز، علماء الاويغور ايضا بقبعاتهم المخمل الطويلة، واردیتهم الصفراء المرماة على كتف واحد وقد اصبحوا الان من قوام الجيش وصلبه.

واذا اجتزت مراكز البريد، شاهدت ارتالا طويلة من الجمال لا تشاهد منتهاها، وهى تنقل الاقمشة والعاج وانواع من الامتعة الاخرى، الى الصحراء وكلها للتجار المسلمين.

لقد توحدت فى الايام اغراض البرق والسكك الحديدية وبريد الرزم والامانات فى آن واحد. ومكنت هذه المراكز من يؤمها من المناطق المجهولة

من التوجه الى المغول فى (كوبى)• وقد ساق اليهود النحيفو الوجوه على هذه الطرق حميرهم وعجلاتهم المشحونة• ومر الارمن الشاحبو الوجوه، ذوو الاحناك العريضة على هذه الطرق يشخصون بعيون ملؤها الغرابة والعجب، الى جنود المغول الصامتين الجالسين على احراماتهم عند النار او النائمين تحت رفراف او ذيل خيمة مرفوع•

أجل ان هؤلاء المغول اصبحوا سادة الطرق• وانك لتجد فى المدن الكبيرة (داروغا) او حاكما وقد تزود بالسلطة المطلقة فى منطقته وفى معيته كاتب يدون اسماء من يؤم مركزه ويسجل الاموال التى تمر به•

وكان عدد الحفراء فى هذه المنازل قليلا بحيث لم يكن الا حرسا الى رئيس المنزل• اما واجباتهم فضئيلة ايضاء اذ من يطلبونه او ما يطلبونه من الارياف والاماكن المجاورة لابد وان يأتيهم• فظهور مغولى من المغول على جواده الاشعث والرمح الرشيق معلق على كتفه ودروعه الملكمة تلمع من تحت ردائه من جلد الغزال او فراء الصمور، يكفى ليسرع نحوه من يشاهده طائعا مسخرا ليقضى له رغباته• لقد انقطع دابر السراق الاسيوين الضعاف النفوس• وهل يجرأ احد على سرقة مرسة عنان من ربيئة مغولية مهما كان الحراس فيها غير منتبهين او غير مكترثين ؟•

ووقف عند هذه المراكز او المنازل ارهاط المسلمين من ارباب الصناعة الذين انهكتهم المتاعب والاسفار فمنهم التجار، والموسيقيون، وصانعوا الآجر، والحدادون، وصاقلوا السيوف، وناسجوا الطنافس، وهم من السبايا المساقين الى (قاراقوروم)؛ وقد ارتجفوا وتعثروا وهم يقطعون القفار المحيطة بالبحار الداخلية، وليس فى حراستهم الا فارس من الجيش ودليل• وهل لهم فرصة للهروب ؟•

ومرت مسرعة على هذه المراكز جماعات غريبة أخرى، ومنهم اللاما بقبعاتهم الصفر وهم يترنحون ويفرون دوائر او دواليب صلواتهم وعيونهم شاخصة الى اعالى القمم المكسوة بالثلوج• ومنهم من يرتدى القبعات السود وهم من منحدرات (تى‌به‌ت) الجرداء، والحجاج البوذيون ذوو العيون المنحرفة

الذين لا تفارق الابتسامات وجوههم والذين عليهم ان يقضوا سنواتهم وراء العثور على السبل التى سار عليها فيما مضى، اوحدهم الاقدس. ومنهم ايضا النساك الحفاة، والفقراء ذوو الشعور المسترسلة المستغنون عن العالم المحيط بهم، والرهبان النسطوريون ببزاتهم الربد وقد غمسهم الكثير من السحر والشعوذة، وان رتلوا بعض الصلوات ورددوا بعض آيات الكتاب المقدس.

وكثيرا ما يؤم هذه المراكز خيال ممتط جوادا يتصبب عرقا، مفرقا الرهبان والحكام الصينيين وميزيحهم عن طريقة وناطقا بكلمة واحدة كانها صرخة داوية وهو يسحب اعنة جواده عند الـ(يورت). فهذا الخيال يحمل الرسائل الى الخان، وقد قطع مسافة مائة وخمسين ميلا فى اليوم دون توقف او ارتياح، وهكذا نرى ان احسن جياد المنزل قيدت اليه بسرعة ما بعدها سرعة.

هكذا كانت مراكز البريد، الـ (يام) ـ وقد وصفها لنا بعد جيلين (ماركوبولو) كما شاهدها فى سياحته الى (كامبالوو) . وهى مدينة الخانات فى حينها.

«والآن اعلموا بان سعاة الامبراطور الذين يسافرون من (كام بالوو) يجدون فى كل خمسة وعشرين ميلا من طريقهم منزلا ينعتونه (دار بريد الخيل)، وفى كل من هذه المراكز بنية واسعة مرتبة ترتيبا متقنا لسكنى هؤلاء السعاة، وغرف هذه البنية مؤثثة باجمل الاسرة واغنى الحرائر. ولو أم احد هذه المنازل ملك من الملوك لوجد ما يليق به من المكان والاعتناء».

«وفى بعض هذه المنازل اربعمائة جواد، وفى البعض الاخر مائتا جواد. ولو اضطر السعاة على المرور من مناطق غير مطروقه، لا مساكن فيها، لوجدوا تلك المنازل وان كانت على مديات ابعد؛ وهى مجهزة بكل الضروريات. وكل ذلك لكى يفوز سعاة الامبراطور براحتهم، ويجدوا كل ما يفتقرون اليه، اينما جاؤوا وحيثما حلوا». «فما كان لامبراطور فى الماضى، او للملك، او لسيد ثروة فى مثل مظاهرها هذه. فجموع الخيول المربوطة فى هذه المنازل تبلغ (٣٠٠) الف جواد. وعدد المنازل تزيد على عشرة الاف منزل. فهذه امور

عجيبة غريبة فى بابها، ويصعب على المرء ان يصفها كما هى.»

«فبهذا الاسلوب كان الامبراطور يتلقى الرسائل من اماكن على بعد مسيرة عشرة ايام بمدة نهار وليلة. فكثيرا ما جمعت الاثمار فى صباح يوم من الايام من (كام‌بالوو) ووصلت الى الخان الكبير فى (شاندو) فى مساء اليوم الثانى. وقد اعفى الامبراطور هؤلاء السعاة من جميع الضرائب علاوة على منحه لهم المال. (*)

«هذا ويسكن هذه المنازل بعض الرجال الذين يتحملون قطع مسافة فى الحالات الطارئة طولها مائتا ميل او مائتان وخمسون ميلا فى النهار الواحد ومثلها فى الليلة الواحدة (**). وينبس كل من هؤلاء السعاة حزاما عريضا منخنا بالاجراس لكى تسمع دقاتها من مسافة بعيدة. فعندما يصل الساعى مركزا من المراكز يجد مراسلا اخر مجهزا التجهيز نفسه فيستلم من الاول فورا ما عنده، كما ويستلم معه ورقة من كاتب قائم بواجبه على الدوام ـ والكتاب فى هذه المنازل يدونون اوقات وصول كل ساع من السعاة واوقات ذهابهم.

«فهم يمتطون جيادا من الجياد المسرجة المتهيأة فى المنزل وهى جياد مرتاحة عزومة. واذا ما امتطوا الجياد اسرعوا وتسابقوا مع الرياح. وعندما يسمع الرجال فى المنزل الثانى، اصوات الاجراس هيأوا جوادا اخر. اما

(*) (خان باليغ) اى مدينة الملك. كان (كوبلاى‌خان). الامبراطور فى عهد سياحة (ماركوبولو) يقطن عاصمة الصين. و(جاندو) هى (شاندو) او (اكساندو) التى وردت فى شعر (كولريدج) :ـ

«ففى (اكساندو) قضى (كووبلا) خان
امراحه المطمئنة وحكم حكمه السامى
حيث يسيل الـ (آلف) النهر المقدس.

ويقول لنا (ماركوبولو) بانه قضى ستة ايام فى سفره من (شاندو) الى (كام‌بالوو). ونرى ان سفراته اليومية هذه كانت طويلة المراحل.

(**) يحتمل ان هذا خطأ. لقد اقتبست هذه الرواية بعد تلخيصها قليلا من طبعة (يوليه ـ كورديه‌ر) لـ (ماركوبولو).

السرعة التى يطوون بها الارض فسرعة فائقة عظمى. هذا ولا يمكن لهم قطع المديات ليلا بتلك السرعة كما يقطعونها نهارا اذ يجب ان يستصحبهم رجال مشاة يحملون المشاعل.»

«فلاعمال هؤلاء الرجال قيمتها العظمى. فهم ان لم يقمطوا بطونهم ورؤوسهم وصدورهم بقماطات قوية لاستحال عليهم القيام بها. هذا ويحمل كل منهم قرص باز للتدليل على انه مكلف بانجاز واجب يتطلب السرعة المتناهية. وان حدث وسقط جواده او اصابه عطب او تعور فى الطريق فله الحق فى ترجيل كل من يصادفه او يمر به، ويأخذ ركوبه منه. ولا قبل لاحد على رفض مثل هذا الطلب او التمنع من الانقياد اليه».

* * *

كانت طرق البريد هذه فى الحقيقة، الدعائم التى ترتكز عليها ادارة الخان. ومن البديهى ان يكون (داروغا) كل موقع مكلفا بالاحتفاظ بكوكبه من الخيل، ويجمع المؤون والذخائر من الانحاء المجاورة. هذا وكان على البلاد التى لم تكن فى الحرب فعلا مع الخان دفع الضرائب والجزيات الى الجيش. وقد اصبحت (الياصا) او اوامر الخان قوانين البلاد. انها حلت محل القرآن والشرع الذى يتبعه القضاة الاسلام. هذا وقد نظموا السجلات فى النفوس.

لقد استثنى المغول رجال الاديان من الضرائب، وهذا ما جاء فى الياصا. وقد وسموا الجياد التى اقتناها الجيش بوسم صاحبها. اما جياد الخان فكان وسمها خاصا به.

وللاحتفاظ بسجلات النفوس ومستمسكات ال (داروغا)ت، شيد المكدون من الصينيين او الاويغور ال (يامەن) او دواوين الحكومة. وعين المغول فى دست الحكم ما عدا الحاكم المغولى، بعض الرجال البارزين من البلاد والمناطق المحتلة. وواجب هذا الحاكم المحلى جمع المعلومات التى يحتاج اليها المغول والقيام بالوساطة بين الفريقين.

ومنح جنكيزخان فى منطقة من المناطق شيخا محترما من الشيوخ قرص سلطة نمر. وهذا القرص يخول الشيخ ان ينقض كل ما يقرره الإداروغا)ت، بما فى ذلك الاعفاء من الاعدام ايضاء لقد خففت السلطات التى خول الخان بها الحكام المحليين الكثير من الفزع والتعذيب. ولم يحل حتى ذلك الحين،الوقت الذى تنصاع به الشعوب المغلوبة الى (الياصا) كما ينصاع اليها المغول ولكن حلوله لا بد منه، آجلا ام عاجلا.

فالمغولى جنكيزخان، كان فوق كل شيء وقبل كل شيء رجلا مستقيما لا يتحول. ولقد برهن اكثر من مرة، وبعد ما قام به من الغصص والمظالم فى احتلالاته العسكرية انه السيد السموح.

وما فكر جنكيزخان كثيرا بالامور الاخرى عدا ما يتعلق منها بالجيش، وبالطرق الحديثة، وبالثروة التى كانت تنساب على شعبه من العالم المحتل. ان ضباطه اصبحوا الان يتدرعون باحسن الدروع التركية. وقد غدت سيوفهم من المهندات الدمشقية.

والخان لم يكترث بترف المسلمين ايضاء الا فيما يخص الاسلحة الحديثة التى يرغب بها الرغبة الشخصية، وبكل علم حديث. فانه حرص كل الحرص على ملابس (كوبى) وعادات (كوبى). وقد تجد الخان متساهلا لين العريكة فى بعض الاحيان، ولكنه تراه كئيبا عابساء مجدا عندما يعمل لاتمام ما بقى ناقصا من اعمال حملة او غارة؛ اذ تتأجج لديه غالبا فى مثل هذه الاحيان حدة الطبع وشراسة الخلق. انه اكرم مرة مثوى طبيب سمرقندى بشع الصورة، كريه المنظر، وحباه بلطف خاص، اذ عالج له عينيه وقد بدأ الطبيب يتسقع ويتوقح مستغلا تسامح الخان له وما اظهره نحوه من لين، فصار يزعج الضباط ويقلقهم. كما طلب هذا الطبيب فتاة مغنية فاتنة اسرت فى الغارة على (اوورغنج) فضحك الخان واستأنس لاصرار الطبيب على طلبه، فمنحه الفتاة. ولكن بشاعة الطبيب لم ترق لعينى الاسيرة الحسناء. وعلى ذلك جاء الرجل السمرقندى الى الخان طالبا منه ان تؤمر الفتاة باطاعته واسعاف رغباته، الامر الذى ازعج الخان واغضبه وجعله يقذف ويطعن بالرجال العاجزين عن معالجة

امر اطاعة الغير لهم. وبعد القذف والطعن تحرك فيه التعسف والغدر، فأمر بقتل الطبيب فقتل.

وفى هذا الخريف استدعى الخان الضباط الكبار الى الاجتماع الاعتيادى. ولكن (جوشى) نجله الاكبر لم يلب الدعوة. فأهدى لوالده عوضا عن حضوره بعض الخيول واخبره بأنه مريض لا يقوى على السفر.

وكان بعض امراء الجيش يكرهون (جوشى) وينعتونه بالتاتارى، مشيرين بذلك الى وصمة مولده. فانتهزوا هذه الفرصة ووشوه عند الخان قائلين بان نجله الاكبر لم يطع الدعوة فخالف بذلك الـ (قوورووول تاى). وعلى ذلك، طلب الخان الضابط الذى اتى بالجياد واستفسر منه حقيقة مرض (جوشى) فأجابه الرجل القيبجاقي قائلا : «لا اعلم ذلك، الا اننى تركته فى الصيد».

غضب الخان وانسحب الى خيمته. وكان ضباطه يتوقعون بان الخان سيسير بجيش على (جوشى) الذى ارتكب جناية التخلف، او عدم الطاعة. الا ان الخان املى رسالة على احد كتابه وسلمها الى مراسل شرع من فوره بالسفر غرباء. ما كان الخان يرغب فى الفت بوحدة الجيش. ويحتمل احتمالا كليا بانه لا يتوقع عصيان نجله. اننا نرى، انه امر فى رسالته هذه (سوبوتاى) ان يرجع من اوروبا الى مقره مستصحبا معه (جوشى) اينما كان..

الفصل العشرون

معركة السند ، ١١ (اندوسى)

لم يتسع الوقت فى ذلك الخريف المفعم بالحوادث لغير الحرب. لقد ثارت (هرات) والمدن الاخرى بوجه الفاتحين . وكان جلال الدين يحشد جيشا فى الشرق. هكذا جاءت الرسائل من فيالق الرصد المبثوثة على طوار (هندكووش). وكان جنكيز خان عندما سمع باندلاع الثورة فى (هرات)، يدبر امر ايفاد (تولى) ابرز قادته الذين يعتمد عليهم لمنازلة الامير الخوارزمى. فحاد عن خطته، وارسل (تولى) غربا الى (خوراسان) وبقيادته عدة فرق من الجيش.

اما هو فقاد (٦٠) الف مقاتل وتوغل فى الميدان لمقابلة الجيش الخوارزمى الجديد وابادته. فوجد فى طريقه مدينة (باميان) الحصينة فى سلاسل (كوهى بابا) فاستقر امامها لحصارها، مرسلا القسم الاعظم من قواته بأمرة اورخان اخر لمناضلة جلال الدين.

وبعد مدة من الزمن وصل المراسلون فى (باميان) واخبروه ببلوغ قوة جلال الدين الى الستين الف مقاتل، وبأن اورخانه المغولى قد اصطدم به ولكنه تجنب المحاولات العديدة التى توسل بها الخوارزميون للايقاع به وتوريطه فى الكمائن، وان الكشافة تراقب حركات الامير الجبار.

والواقع هو ان جيشا افغانيا التحق بجلال الدين فى هذه الازمة وبذلك اصبحت قوة الامير ضعف ما كانت عليه. وبعد زمن قليل، جاءت الانباء تعلن بان الاتراك والافغان قهروا الاورخان المغولى ودحروا قواته الى الجبال.

لقد جن جنون جنكيزخان ازاء المدينة التى كانت ماثلة امامه. فالمدافعون عنها كانوا قد جردوا جميع المنطقة التى تحيط بها من الخيرات، او ما يمكن استغلاله للغايات الحربية، حتى انهم رفعوا الاحجار الكبيرة منها التى يمكن للمهاجمين قذفها بمناجيقهم. ولم يستصحب المغول معهم فى غزواتهم هذه تجهيزاتهم الاعتيادية. اما مسلاتهم الخشب التى اسندوها على

الاسوار فامست هدفا للسهام والنيران الملتهبة فاضطر المغول على ذبح المواشى وسلخها، وتغطية هياكل المسلات الخشب بجلودها.

امر الخان بالحملة، وهى غارة لا هوادة فيها حتى يحتل المهاجمون المدينة. وقتل تحت الاسوار فى هذه الحملة (موتوغان) احد احفاد الخان االذى كان يعقب جده، فأمر المغولى الشيخ ان ينقلوا جثة الصبى الذى كان يحبه لشجاعته الى خيامه.

ثم اندفع الخان شخصيا فى الحملة فحسر رأسه لها راميا بقبعته ارضا وشق صفوف جنده الى ان اصبح فى مقدمة قطعات الهجوم. لقد استولت القطعات على جانب من الاسوار فى فجوة من الفجوات. ولم يمر وقت طويل الا وامست (باميان) فى قبضتهم. انهم ذبحوا كل ذى روح داخل اسوارها، وهدموا الجوامع والقصور حتى والمغول انفسهم صار ينعتون (باميان) بـ(موو ـ باليغ) اى مدينة الحزن.

وبعد ذلك ترك جنكيزخان المدينة من فوره ليجمع فلول رجال فرقه المتبعثرة. انهم كانوا يتلمسون طرقهم بين التلال نحوه، وهم فى حالة يرثى لها لما اصابهم من الكوارث. فوقفهم الخان واسندهم، واثنى فيهم العزم والصدق؛ وعوضا من ان يؤنب القائد الخاسر الذى دحره جلال الدين استصحبه معه متقدما نحو ميدان المعركة، واخذ يستفسر منه ما حدث ويبين له الاغلاط التى اقترفها فى النضال.

والامير الخوارزمى لم يبرهن على براعته فى النصر، كما برهن على تعنته فى الانكسار. لقد ابتهج وتهلل وجهه عندما ذبح رجاله المغول الاسرى، وتقاسموا الجياد والاسلحة المغتنمة. الا ان الافغانيين تشاحنوا مع ضباطه وانفصلوا عنه.

وكان جنكيزخان يسير نحوه، بعد ان افرز جيشا ليراقب حركات الافغانيين. وتقهقر جلال الدين شرقا الى (غزنه). ولكن المغول كانوا يطاردونه اشد المطاردة. وارسل الامير الرسل يستدعى الحلفاء الجدد لتعزيزه، الا انهم وجدوا ان المغول قد سدوا ممرات الجبال. وهكذا اسرع جلال الدين

مع جيشه البالغ الثلاثين الف مقاتل منحدرا من بين السفوح الى وادى نهر السند، الـ (اندوس).

وكان رجاء الامير ان يعبر النهر ويتصل بسلاطين (دلهى)ـدهلىـ الا ان المغول الذين كانوا يبعدون عنه مسافة خمسة ايام فى (غزنة)، اصبحوا الان على مسيرة نصف يوم منه. فالبكاد سمح جنكيزخان لجنوده ان يترجلوا لطبخ طعامهم.

يأس الامير الخوارزمى من موقفه فاسرع نحو النهر، فوجد انه جاء الى مكان حيث يسيل النهر بسرعة وعمق لا يمكن له عبوره. فرجع ووقف حاميا جناحه الايسر بمرتفع جبل، وساندا جناحه الايمن بمنعطف من النهر.

والان وقد استعدت خيالة المسلمين المطرودة من بلادها لاختبار قوتها مع المغولى العنيد القاسى امر جلال الدين بتحطيم جميع الزوارق المتيسرة فى الساحل لكيلا يبقى حيلة لرجاله فى التراجع، وكان موضعه موضعا قويا، وعليه ان يحتفظ به والا كانت القاضية عليه.

وعند الفجر تقدم المغول على خط الدفاع بكامله. انهم اقتربوا فى الظلام، وقد كشف الضوء عنهم، وهم فى تشكيلات الهجوم. وكان جنكيزخان مع لوائه وعشرة الاف خيال من الحرس الامبراطورى وراء مركز الجيش. ولم تشترك هذه القوة فى القتال فى بادىء الامر.

والامير الخوارزمى الشديد الشكيمة، كان الاول فى الشروع بدفع قواته الى القتال. وقد حشد فى جناحه الايمن اقوى فرقة على الاطلاق فى اى جيش مسلم فى ذلك العهد وهى بأمرة الامير ملك(*). بدأت هذه الفرقة بمنازلة جناح المغول الايسر. وحمل الامير حملة شعواء على طوار ساحل (السند)، اجبرت المغول على التراجع فى هذه الناحية من الجبهة. والمغول كانوا متفرقين على عاداتهم الى السرايا فلم شعثهم واعيد تنظيمهم بأمرة احد انجال الخان، واجبروا على العودة الى موضعهم.

وفى الجناح الايمن من المغول؛ صدت مناعة المرتفعات الشامخة من

(*) أمين الملك من كتاب (بيان) ومن موجز سيرة جلال الدين منكبرتى للنسوى ـ المترجم

الجبل تقدمهم فاستكنوا عندها. وافرز جلال الدين بعض القوات من هـذا القاطع لتعزيز جناحه الايمن المتقدم بأمرة الامير ملك. كما انه سحب في ساعة متأخرة من اليوم، بعض السرايا الاخرى من قاطع المدافعين في الجبل لتقوية مركزه.

لقد قرر جلال الدين ان يجازف ويجرب حظه بانزال الضربة الحاسمة. فحمل بنخبة جيشـه حملة شعواء نحو مركز المغول، وشق صفوف عدوه واندفع نحو الرايه قاصدا الخان. ولكن المغولي ما كان هناك. لقد قتل جواده تحته، فركب جوادا اخر، وذهب الى محل اخر.

لقد كانت برهة، تلألأ النصر بها الى الخوارزميين؛ فارتفعت تهاليل المسلمين، واطمست اصوات حوافر الخيل، ورنات الحديد، وصراخ الجرحى.

تضعضع مركز المغولي بهذه الحملة تضعضعا شديدا. ولكنه ثبت يقاتل قتالا عنيدا. وقد لاحظ جنكيزخان انسحاب قوات الجناح الايسر الخوارزمي بكاملها تقريبا، تلك القوات التي كانت تحتل المرتفعات. فأمر (بهلا،نويون) قائد احد الفرق ان يستصحب معه الادلاء الذين كان الخان يستجوبهم، وان يعبر الجبل مهما كلفه الامر. وكان هذا الامر يستهدف القيام بحركة الالتفاف التي اعتاد عليها المغول، وهي المسماة بكسح اللواء.

تقدم الـ (نويون) ورجاله معقبين الادلاء وتوغلوا في المضايق الهاوية، وصعدوا سبل الجروف العمودية؛ تلك المضايق والسبل التي يستحيل طرقها كما تظهر. وقد هوى فعلا البعض من المحاربين في المهاوي. ولكن القسم الاعظم من الفرقة وصل الى اعالي المرتفع في ساعة متأخرة من اليوم، وهجم على البقية الباقية من رجال جلال الدين الذين ابقاهم في هذا المكان لحمايته. وبذلك احاط المغول بجنـاح الخوارزميين من وراء موانع الجبـل، وحمـل (بهلا، نويون) حملته على معسكر عدوه.

وقاد جنكيزخان في هذه الآونة خيالته العشرة الاف الثقيلة واندفع. انه لم يندفع الى مركز الخوارزميين المهدد بل نحو الجناح الايسر المنكسر. وهجم على قوات الامير ملك وشتتهم، وقد اخذ في مطاردتهم دون ان يضيع

وقتاه كما اخذ يحول بسراياه ويدفعها نحو جانب قطعات جلال الدين فى المركز. وبذلك فصل الامير الخوارزمى عن جناحه الايسر عند النهر.

لقد امسى المسلمون الاشاوش، وقد انهكتهم المتاعب، فى موقف حرج بما ابداه المغولى الشيخ من ذكاء وفطنة فى حركته التى تظاهى حركة الشطرنج الاخيرة فى اماتة الشاه. قضى الامر، وكان الانقضاء سريعا شديدا. الا ان جلال الدين قام باخر هجوم يائس على خيالة الحرس، محاولا بذلك سحب رجاله الى النهر. ولكن المغول عقبوه وشتتوا سراياه، وضايقه (به‌لانويون). واخيرا وصل جرف النهر الشاقولى ولم يكن حوله من محاربيه الا سبعمائة فارس.

لقد ادرك جلال الدين حلول النهاية، فامتطى جوادا غير تعب، وخلع دروعه محتفظا بسيفه وكنانته عليه، واندفع بجواده من اعلى الجرف الى مياه النهر الجارفة قاصدا الصوب الاخر.

وكانت اوامر جنكيزخان، تقضى بالقاء القبض على الامير حياه فحمل المغول على تلك البقية من الخوارزميين والعبوا السيوف فى رقابهم. اما الخان فغار بجواده من بين الصفوف حتى النهر ليشاهد ذلك الفارس الذى رآه يلقى بنفسه فى النهر من جرف ارتفاعه عشرون قدما. وقف هناك برهة من الوقت ساكتا صامتا يحدق بجلال الدين ثم رفع يده، ووضع اصبعه على شفتيه فابس بمديح لا غيض ولا حسد فيه. «بمثل هذا الولد يفتخر الآباء» (*)

وجنكيزخان وان غبط، وقدر بسالة الامير الخوارزمى ولكنه ما قصد التخلى عنه. واراد بعض رجاله ان يعبروا النهر سبحا من وراء عدوهم. ولكن الخان لم يسمح لهم بذلك، بل بقى ينظر الى جلال الدين حتى وصوله الى الساحل المقابل بالرغم من سرعة جريان مياه النهر وتلاطم امواجه. وفى اليوم الثانى اوفد فى مطاردة الامير إلى حيث يمكن عبور النهر، مودعا هذا الواجب الى (به‌لا،نويون) ذلك الضابط الذى قاد فرقته من فوق المهاوى والجروف الى معسكر الخوارزميين.

(*) وعلى رواية انه جمع اولاده حوله ووجه قوله هذا اليهم. — المترجم

و (بهلا،نويون) وهو فى طريق المطاردة عاث فى (موولتان) و (لاهور) ثم عثر على اثر المنهزم. غير انه اضاعه بين جموع النـاس فى طريقـه الى (دهلى). والحر الشديد انهك رجال نجد (كوبى) فاضطر النويون على العودة قائلا الى الخان :ـــ

«ان حر هذه البقاع يقتل الرجال. والمياه فيها قذرة غير مريئة، وهكذا ترى ان الهند ـ الا هذا القسم الشمالى منها ـ نجت من فتح المغول لها. وقد عاش جلال الدين، ولكن انقضى عهده. وقد حارب المغول ثانية، ولكنـه حاربهم مشايعا طريدا لا وطن له.

* * *

لقد كانت معركة السند اخر صفحة من صفحات البطولةالخوارزمية. ومن بعدها انقمعت المقاومات فى جميع البلاد من (تى‌به‌ت) الى بحر قزوين. وقد امسى من بقى حيا من الشعوب الاسلامية عبيد الفاتح. وعند نهاية الحرب، كما كان الامر بعـد فتح (كاثاى)، حن المغولى الشيخ الى موطنـه الاصلى وقال :ـ

«سيعيش ابنائى راغبين فى مثل هذه البلاد والمدن. اما انا فلا ارغب.» لقد دعته الظروف الى آسيا القصوى، اذ قد مات (مووهوولى) بعد ان ضيق نير المغول تضييقا شديدا حول اعناق الصينيين. وقد غدى مجلس الخانات فى (كوبى) قلقا، متخاصما. واندلعت الثورات فى بلاد (هه يا).

لقد قاد جنكيزخان جيشه حتى السند (الاندوس) وهو يعلم ان (هه‌يا)تقع فى المنحدراتالبعيدة من (تى‌به‌ت)، وهى لا تبعد اكثر من ثمنمائة ميل وذلك بعد ولوجه وديان (كشمير) الطويلة. ولكنه وجد كما وجد الاسكندر من قبله ان سلاسل الجبال الشامخات التى لا تقهر تحول دون طريقه، فـاظهر التعقـل والحكمة فى قنوطه ويأسه ورجع عن طريقه غير متردد، وسار بخطواته عائدا من حول سقف العالم الى طريق القوافل الذى شيده فى عهد فتوحاته.

وقد اغار على (بيشاوور) ورجع متجها الى (سمرقند). وفى ربيع ١٢٢٠ رأى اسوار (سمرقند) وجنائها للمرة الاولى. وقد اكمـل الان فى اوائل

عام ١٢٢١ واجبه تحت سقف العالم.

وقد اتفق الخان مع الحكيم (يى ـ ليوو ـ جوتساى) على القرار المتخذ القائل :ـ «لقد آن الوقت للتخلى عن الابادة والتقتيل».

ولكن عندما ترك الجيش وراءه آخر الخرائب فى الجنوب، أمر الخان كالمعتاد بذبح الاسرى بكاملهم. وبهذه الطريقة قضى على الجموع الشقية التى سارت وراء الرحل. كما تخلى عن نساء الامراء المسلمين اللواتى تقرر سبيهن الى (كوبى) وتركهن على قارعة الطريق ليلقين النظرة الاخيرة، وليذرفن الدمعة المتبقية فى مآقيهن من الدموع على وطنهن المضاع.

ويظهر لنا ان المغولى الشيخ، تمعن فى معنى فتوحاته برهة من الزمن؛ اذ سأل احد علماء الاسلام قائلا : «اتعتقد ان البشر سيذكرنى لاعنا بسبب الدماء التى سكبتها» كما انه تذكر حكمتى (كاثاى) والاسلام الساميتين اللتين سعى لتفهمها وان نبذهما نبذا عجيبا. اذ قال : «اننى انعمت النظر فى حكمة الحكماء، واراني الآن اننى ذبحت وقتلت دون ان اعلم العمل الصواب. ولكن لم الاهتمام بمثل هؤلاء الناس ؟».

انه اظهر اللطف ازاء المهاجرين الذين تجمعوا فى (سمرقند) ليقابلوه وهم فزعون، يحملون له الهدايا والعطايا. وقد كلمهم واوضح لهم ثانية اخطاء شاههم السابق الذى جهل كيفية التمسك بقوله، وحسن الدفاع عن شعبه. وقد عين منهم الحكام، ومنحهم نصيبا من حماية الياصا لهم ـ او ما يمكن لنا تسميته الآن بحق الانتخاب فى الحكم المغولى. ولم ينقض ردح طويل من الزمن الا واصبح انجاله يحكمون هؤلاء الناس.

وكان الفاتح يشعر بوخزات الجروح القديمة. ويظهر انه بدأ يدرك ان عهده فى هذا العالم اخذ يتدانى من نهايته، فرغب ان ينظم الامور ويضعها فى مجراها قبل رحيله، الا وهى اقماع الثورات، وترصين الياصا، ونصب انجاله فى الحكم.

ارسل ودعا بطرق البريد جميع الضباط ذوى المراتب العالية ليحضروا مؤتمرا كبيرا عند نهر (السير) ـ سيحون ـ بالقرب من المكان الذى دخل منه الى خوارزم للمرة الاولى.

الفصل الواحد والعشرون

ديوان الفرسان

كان المكان المنتخب لعقد الاجتماع فيه مرجا محيطه سبعة فراسخ، وهو مكان مثالى للعقلية المغولية، فدجاج الماء يملأ الاهوار الملاصقة للنهر، والدراج الذهب يتطاير بين الاعشاب الزمردية، وهنالك ايضا المراعى الواسعة، والصيد الوفير الذى تلذ مطاردته فى ساعات الصباح المبكرة. اما الوقت فأوائل الربيع، وفى الشهر الذى يعقد فيه الا (قوورووليتاى) عادة.

اخذ قادة الجيوش، ورؤساء القبائل يتواردون على المحل ملبين الدعوة فى الوقت المضروب، الا (سوبوتاى) الكدود منهم، وقد استدعى من اوروبا، فكان متأخرا عن الموعد.

اجل، انهم تواردوا من جميع انحاء الرياح الاربع، وهم سور الامبراطورية، والقادة من الحدود النائية، والتراخين الجوالة، والملوك التابعون والسفراء. انهم قطعوا المسافات الشاسعة للوصول الى مؤتمر رجالات الرحل. اما الحاشيات التى استصحبوها فما كانت بالضئيلة، التافهة. لقد جاءت العجلات من (كاتاى) تجرها الثيران المتجانسة، المزدوجة الفدانات المجللة بالحرائر، والاعلام المغتنمة ترفرف على مصطباتها.

قدم الضباط من منحدرات (تى بهت) بعجلاتهم المطلية باللك، المطعمة بالذهب والفضة تجرها الياقات المشعرة الضخمة، بقرونها العريضة، وذيولها الطويلة. ولليافات قيمتها العظمى بين المغول. وجاء (تولى) سيد الحرب من (خوراسان)، ومعه الاسراب العديدة من الجمال البيض. وانحدر (جاتاغاى) من ثلوج السلاسل ومعه مائة الف جواد. لقد ارتدى الضباط القبليون هؤلاء، اردية من نسيج ذهب وفضة ومن فوقها افراء الفنك، وقد التفوا بجلود الذئاب الربد الفضية لوقاية زيناتهم.

وجاء من (تيان شان) ايديكوتات الـ (ويغور)، اعز الحلفاء قاطبة، والملك الاسد للجمهور المسيحى، ورؤساء القرغيز ذوو الوجوه العريضة، والتركمن

ذوو الاطراف الطويلة وهم فى ملابسهم الفخمة ليعرضوا طاعتهم على الفاتح.

فما كانت الخيل الان مدرعة بالجلود المجففة فى الهواء بل اصبحت الان مدرعة بسلاسل الحديد الرنان، وقد لمعت الرخوت وطليت ورصعت بالجواهر.

وجاء (كوبى) طفل فى التاسعة من عمره، له منزلته العظمى، الا وهو (كووبى‌لاى) نجل (تولى). وكان قد فسحوا المجال له للقيام بالصيد للمرة الاولى. وذلك حادث له منزلته العظمى لحفيد امبراطور. وقد أتم جنكيزخان شخصيا مراسيم توجيهه او تدريبه التمهيدى.

اجتمع امراء القبائل فى ردهة الـ (قوورووول‌تاى)، وهى سرادق ابيض واسع يستوعب الفى رجل. وللسرادق باب واحد محظور على غير الخان ارتيادها. اما المحاربون الحاملو التروس الواقفون عند المدخل الكبير وهم مستقبلون الجنوب، فما كانوا الا الحفر الاعتيادى المعهود اليه الحراسة. لقد كان النظام فى الجيش شديدا ومناهج الامبراطور موضوعة على اسس لا تدع لاحد لا سلطة له من التقرب من مسكنه.

اهدى فيما مضى الى الخان فى (كوبى)، رؤساء القبائل والملوك التابعون خيولا مغتنمة او منهوبة ونساء واسلحة. اما الان فقدموا له الهدايا الجديدة وهى تختلف عن الاولى، فهى اثمن الخزائن المصطفاة بترو واعتناء من نصف الكرة الارضية. ويخبرنا المؤرخون ويقولون لنا فى ذلك : «لم يسبق ان شوهدت مثل هذه التحفُ والطرف من قبل.»

لقد اصبح امراء الامبراطورية يحتسون الان نبيذ العسل وخمرة ايران المعتقة، البيضاء منها والحمراء عوضا عن شراب حليب الافراس. وقد اعترف الخان شخصيا بولوعه بنبيذ (شيراز).

وصار يجلس الخان الان على عرش محمد الذهبى، ذلك العرش الذى نقله معه من (سمرقند) وقد وضع الى جانب العرش صولجان امبراطور المسلمين المتوفى وتاجه. وعند انعقاد المجلس ادخلت عليه ام الشاه والسلاسل تحيط بمعصميها. وقد وضع الخان تحت ذلك العرش قطعة مربعة من لباد من شعر البهائم شعارا الى سلطته القديمة فى (كوبى).

اخذ الخان يقص على القادة المجتمعين القادمين من الشرق، قصص الحروب فى السنوات الثلاث الماضية. وقال لهم بهدوء وسكينة «اننى نلت السيادة العظمى بفضل الياصا فعيشوا وانتم طائعون لها».

والمغولى الداهية لم يسرف كلمة فى مدح اعماله وتبجيلها، بل نراه الان يستهدف وجوب الطاعة الى القانون واحترامه. وعاد لا يشعر الان بحاجة الى نصح ضباطه، او الى قيادته الشخصية. لقد اصبحوا وهم على اتم الكفاءة لشن الحروب وادارتها. وقد شعر الان بوضوح خطر التفرق المحدق بهم. هذا وتفخيما لانتصاراته ادخل عليه وهو على العرش جميع السفراء الضيوف الواحد بعد الاخر.

وانذر الخان اولاده الثلاثة بكلمة هى : «لا تدعوا فرصة لشبوب البغضاء بينكم. اصدقوا الى (اوغووتاى) واعتصموا به . . .»

ثم اقيمت المآدب لمدة شهر كامل فى الـ (قوورووك تاى)، وأم هذا الفصل من المهرجان ضيفان كريمان. لقد قدم (سووبوتاى) من البلاد المتاخمة الى (بولونيا) ومعه (جوشى).

و (جوشى) هو الولد البكر الذى قصده الاورخان الباسل، واقنعه على حضور الاجتماع ومقابلة والده. وهكذا مثل (جوشى) بين يدى الخان وجثا امامه ليضغط بيد والده على جبينه. والفاتح الشيخ، الذى يود (جوشى) الود كله، رضى عنه وقنع، وان لم يظهر له ما كان يكنه أزاءه من شعور واحساس. وجاء فاتح البوادى بهدية الى سيده قوامها مائة الف جواد قبجاقى. ولم يرق لجوشى الديوان الذى امه، فاستأذن من والده للرجوع الى الـ (فولغا)، فأسعف الخان طلبه.

تمت الاعمال، وانتهت الحفلات. فرجع (جاتاغاى) الى جباله، وعادت الحشود الاخرى الى (قاراقوروم). وينبئنا التاريخ ان الخان، كان يستدعى، فى كل يوم من ايام السفر، (سووبوتاى) الى جانبه ويطلب منه ان يقص عليه مجازفاته ومخاطره فى العالم الغربى.

الفصل الثانى والعشرون

خاتمة المعركة

ما قدر لجنكيزخان ان يقضى العامين الاخيرين من عمره فى موطنه. فقد هيأ كل شىء الى اولاده الا شيئين. فهنالك قوتان معاديتان لا تزالان قائمتين امامه فى العالم. وهذا ما كان يراه الخان: ملك (هه‌يا) المقلق فى ادانى طريق (تى‌به‌ت)، و (سه‌نغ) القديمة فى الصين الجنوبية. قضى الخان موسما فى (قاراقوروم) بين عشيرته والى جانبه (بوورتاى)، ثم عاد وامتطى صهوة الجواد. فأرسل (سووبوتاى) ليقهر بلاد الـ(سه‌نغ) وعهد لنفسه واجب اخضاع قبائل (هه‌يا) الصحراوية والقضاء عليها.

وهذا ما عمله. سار فى الشتاء على المستنقعات المتجمدة، فوجد ان اعداءه الاقدمين قد استعدوا لمقابلته، وهم البقية الباقية من الكاثائيين، وجيوش الصين الغربية، والاتراك، وقوات (هه‌يا) بكاملها. والتاريخ يلقى نظرة خاطفة على مشهد الامحاء المريع والابادة المفزعة ـ فالمغول المرتدون الفراء يقاتلون فى ميدان قتال هو نهر متجمد، واعداؤهم المتفقون وهم على وشك الانتصار يحملون الحملة بعد الاخرى بكتل متراصة على بواسل الخان فى مركز خط القتال، قلب الجيش. ويحتمل ان لقى حتفه فى هذه المعمعة ثلثمائة الف مقاتل من البشر.

ثم انقلبت الآية وحل حصاد الهشيم. اذ شتتت البقية الباقية من قوات المتفقين، وهى مخدوعة مغلوبة متضعضعة. والمغول وهم فى طريقهم ما رأوا رجلا قادرا على حمل السلاح الا وذبحوه. والتجأ ملك (هه‌يا) الى قلعة فى جبل تحيط بها المضايق المحصنة بالثلوج، واخبر الخان العتيد بخضوعه وخنوعه له ساترا حقده ويأسه بستار الاخوة والصداقة وطالبا تناسى ما حل وما مضى.

واجاب الخان الرسل قائلا «قولوا لسيدكم اننى لا ارغب فى تذكر الماضى. واننى سأعتبر له صداقته».

ولكن الخان لم يرغب فى الوقت ذاته فى انهاء الحرب، ها هو ذا الشعب الـ(سه‌نغ)ى الذى يجب عليه اخضاعه ايضا كما اخضع المتفقين. فسير الجيش

فى اواسط الشتاء نحو حدود الصين القديمة. وتجاسر الحكيم (يى ـ ليوو ـ جوتساى) على الاحتجاج عند الخان، ازاء امحاء الـ (سه‌نغ) قائلا «انك اذا ذبحت هؤلاء فمن الذى سيساعدك ؟ ومن الذى سيمول انجالك »؟.

فاطرق الفاتح متفكرا، ويحتمل ان خطر له انه بالرغم من جعله البلاد المأهولة بوادى قاحلة، فان علماء (كاثاى) وحكماءها ساعدوه فى صيانة النظام وتسيير الامور له كما يجب. ثم اجاب الخان جوابا غير منتظر اذ قال : «اذن كن انت سيد الشعوب التابعة، واخدم انجالى خدمة صادقة».

هذا ولم ينس او يعف الخان عن اخضاع الـ (سه‌نغ) اخضاعا عسكريا. فهذا واجب محتم انجازه، وانجازه حتى النهاية؛ وعليه بقى ممتطيا صهوة جواده وقاد جيوشه عبر النهر الاصفر. وهنا علم الخان بموت (جوشى) فى البوادى، فاصدر ارادته قائلا : «اود الانزواء فى خيمتى». وقد استولى عليه الحزن والقنوط لموت ولده البكر.

لم يمر وقت طويل على قتل نجل (اوغوتاى) الصغير الى جانبه فى (باميان)، وقد امر الخان والده الثكل الا يظهر الحزن قائلا : «اصغ لما آمرك. لقد مات ولدك قتيلا، وانى امنعك عن البكاء».

ولم يظهر الخان ايضا حزنه الى الملأ لموت (جوشى). بل انه تقدم مع الجيش وكانت الامور تسير سيرها الاعتيادى، الا ان الخان قلل من تكلمه مع ضباطه. كما ان البشائر عن نصر جديد اكتسب بالقرب من الخزر لم تغير من قنوطه، او تدعه الى ابداء ملحوظة فى الظفر، او تستوجب المدح والثناء. ونراه يأمر بالوقوف، عندما توغل الجيش فى غابة صنوبر كثة كانت الثلوج لا تزال فى افيائها بالرغم من حرارة الشمس.

وامر بذهاب بعض السعاة مسرعين الى اقرب انجاله (تولى) الذى عسكر فى مكان ليس ببعيد طالبا حضوره. وعندما ترجل سيد الحرب، وقد اصبح الان رجلا مترعرعا، عند خيمة الخان؛ وجد والده ممتدا على بساط بالقرب من النار، ملتفا باللباد وبرداء من فرو السمور. فرحب المغولى الشيخ بالامير وقال له. «ارى، اننى يجب ان اودع كل شىء اليك، وافارقك . . »

لقد كان مريضا منذ حين، وهو يعلم ان مرضه سيودى بحياته. فأمر بحضور امراء الجيش والقبائل فجثوا امامه مع (تولى) صاغين الاصفاء كله الى كلماته. فاوصاهم بصراحة، موجها اليهم التعاليم عن كيفية الاستمرار بالحرب ازاء الـ (سه‌نغ) تلك الحرب التى شرع بها ولم يقدر له انهاؤها. وكانت تقضى وصاياه على (تولى) بوجه خاص الاستيلاء على البلاد فى الشرق، وعلى (جاتاغاى) ان يقاتل فى الغرب، وان يكون (اوغووتاى) القائد الاعلى المسيطر عليهما، اما مقر الخاقان فيكون فى (قاراقوروم).

وككل راحل من الرحل، مات دون تشك او تذمر. وقد ترك لاولاده اعظم امبراطورية من الامبراطوريات واعظم جيش مبيد من الجيوش، وكأنه لم يمتلك شخصيا من كل ذلك الا خياما وقطعانا. وكان ذلك فى عام ١٢٢٧ وهو عام الجرذى فى تقويم الحيوانات الاثنى عشر.

ويخبرنا التاريخ بان جنكيزخان اوصى فى اخر ايام مرضه بقتل ملك (هه‌يا) عدوه القديم وقد كان فى طريقه آتيا اليه. كما امر الخان بكتمان موته على قدر المستطاع.

وركزوا فى الارض رمحا، وجعلوا سنانه فى التراب امام خيمة الفاتح البيضاء، المنعزلة عن خيام المعسكر، ومنع الحرس المنجمين والحكماء الذين جاؤوا لعيادة الخان من الدخول عليه. ولم يدخل عليه الا القادة من ضباطه الذين جاؤوا فولجوا السرادق متظاهرين بان سيدهم قد اقعده المرض وانه يصدر اوامره وهو فى فراشه. وعندما وصل وازع (هه‌يا) الى المغول، دعى وحاشيته الى مأدبة، فخلعوا عليهم، واجلسوهم بين ضباط الجيش، ولكنهم ذبحوهم حتى اخر فرد منهم.

رجع عمداء الجيش وامراء القبيلة وهم فى رفقة جثمان الخان ليدفنوه فى (كوبى). رجعوا وقد اضاعوا جنكيزخان، وهم مفجوعون بموت الرجل الذى لا يقهر، ذلك الرجل الذى جعلهم يسودون كل ما يرغبون فيه. وكان عليهم قبل ان يدفنوه عرض جثمانه على شعبه، ومن ثم حمله الى مرقد (بوورتاى) الاخيرة زوجه الاولى.

مات الخان في بلاد الـ (سه‌نغ)• ولكيلا يشيع خبر ما اضاعه المغول بين اعدائه، اخذ الفرسان الذين كانوا يحرسون عجلة النعش بقتل جميع من في طريقهم حتى وصولهم حدود الصحراء، ثم اعلن رجال القبيلة الذين عركتهم الحروب الطويلة، حزنهم واذاعوه وهم سائرون على جانبي النعش•

فلم يعد يسير الخان امام الراية• وهذا امر انكروه على الواقع ولم يشاؤوا تصديقه• ولم يعد يتيسر لهم ان يكروا على الاصقاع والانحاء نزولا عند ارادته•

وصرخ (تارخان) اشيب شعره مخاطبا الخان بعد مماته قائلا «يا سيدي الـ (بوغ‌دو) لماذا ترحل عنا هكذا ؟ ان موطنك وانهاره في انتظارك• وان بلادك السعيدة ودارك الذهب ومن حولها ابطالك في انتظارك• • ولماذا ترحل عنا، وتتركنا في هذه‌الارض المحرقة؟ وقد ستر وجهها هذا العدد الوفير من الاعداء امواتا••

اما الاخرون فقطعوا البوادي والاحزان تكتنفهم • • وهكذا دون المؤرخ رثائهم :

كنت كالصقر، اذا مـا انقض في سهـل ونجد•
فغدوت اليوم ملقـى حشو ارياط وبرد،
بعد ان انجزت ما املت من وعد وعهد
كنت « بوغ دو » ا، فواه كيف مت ؟
كنت في عرشك لكن، قد هويت ! • •
انت يا خاني • •
قد تركت الزوج والاولاد، والحل الحبيبا
بعـد ان حلقت في شعبك تجتـاح الخطوبا•
فبلغت العز والعليـاء، والافق الرحيبـا • •
كنت (بوغ دو) ا، فواه كيف مت ؟ • • • الخ•(*)

---

* اما ترجمة النص بحروفه فهو :

«انقضضت كالصقر فيما مضى • • اما الان فتحملك عجلة صارة، وتتقدم بك الى حيث اللانهاية • • يا خاني»•

«اتركت حقا زوجك، واولادك، وندوة شعبك • • يا خاني•»

«لقد قدتنا محلقا في العز والعظمة فيما مضى • • اما الان فسقطت وهويت يا خاني•»

اوصلوا النعش الى الموطن، ولكن لا الى (قاراقوروم) بل الى الوديان التى كدح فيها ليعيش وهو طفل، الى حيث ما لا يقدر على نكرانه من الارث. وركب السعاة من القبيلة واسرعوا فى القيافى قاصدين العمداء والامراء، والقادة النائين، وهم ينعون لهم الخان.

وبعد ان وصل اخر ضابط من ضباطه الى خيمة النعش، وترجل، حملوا الجثة فأوروها التراب حيث المقر الاخير. وقد يكون مقره هذا، فى غابة كان قد اوصى بها. فقد حفروا القبر تحت شجرة كبيرة فيها، ولا يعلم اكثر من هذا، عن مدفنه.

ويقول المغول ان عشيرة من العشائر اعفيت من واجباتها العسكرية، وعهد بها حراسة القبر. وانهم حرقوا البخور دون انقطاع عند القبر الى ان نمت اشجار الاحراش المكتنفة بالغابة وتعالت واكتظت وتكاثفت فاختفت تلك الشجرة الشامخة بين صحيباتها وتلاشى كل اثر للقبر وضاع.